فيحاء السامرائي

ظلال لاسعة

قصص

ألف ياء
Alf Yaa

ظلال لاسعة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المؤلفة: فيحاء السامرائي
الكتاب: ظلال لاسعة (قصص قصيرة)

صدرت النسخة الرقمية: شباط/ فبراير 2026

صدرت الطبعة الأولى عن (لندن غولدن بوك للطباعة والنشر) - 2025

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net

- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**«ألف ياءAlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فيحاء السامرائي

ظلال لاسعة

قصص قصيرة

Fayhaa Al Samerrae’e

Stinging Shadows

Stories

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المحتويات

الجانب الآخر من الصمت..... 7
مسّ من الحنين..... 13
«ظل الغريب على الغريب عباءة» 17
حمّى..... 23
«لن نتلاقى، لكننا لا نفترق» 29
مسرّة صغيرة 35
وقت سائل..... 41
ياسمينة أليتا 45
منفى الآمال 49
عند الطاولة 53
اختيار واحتيار..... 59
المعرفة قوّة 63
النافذة..... 67
محْنة..... 73
إنْ يسأل عنه أحد 79
نُدَب أديب 85
معرض حلمه 89
نِعْمة 95
قمامة 99
أي حرب؟..... 103
الطريق..... 109
أحزان الدم (سرديات أزقّة)..... 113
جذور نافقة..... 119
عشائر 123
يوم عادي 129
إلى من يهمه العمر (لذكرى أناس راحوا عبثاً)..... 133
على مرمى ابتسامة..... 137

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تنمية بشرية 141
مكتوب في الغيب 145
شيزوفرينيا عاطفية 149
أورثوركسيا 155
يوم في حياة ظل 159
ظل محني 163
شكراً لظلّكم 169
ما من حل 173
الخالقون 177
حب في عراق 2125 183
انقلاب في ذات النِعم 187
إقامة في ذات اللهب 193
حوار كراسي خشبية 197
أنفاس الحسّون 203

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الجانب الآخر من الصمت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أواكب على الجلوس في مقهى صغير يطّلّ على شارع مكتظ بدكاكين وناس متسوقين، وعند طاولة منعزلة على الرصيف أستمتع بارتشاف قهوتي الصباحية.. صوت عال للنهار حولي.. أتطلع إلى المارّين بتمعن، أرقب ظلالهم، أرى منهم من ينظر نحو الأرض من دون أن يلتفت لما حوله وكأنه في عالم آخر، على عكس البعض الآخر ممن يثيرون جلبة وصخباً بضحكاتهم وأصواتهم وخطواتهم الضاجّة بالحياة، أكاد أحكم بأن الفئة الأولى هم ناس مهمومون متعبون، أما الفئة الثانية فهم غير المبالين لأي شيء، يعيشون حياتهم كما يشاؤون لا كما تشاء الحياة لهم.. ناس كثر، سحن مختلفة، متبضعون، أمهات يسحبن عربات أطفال وناس يقودون كلابا.. أحدّق في الجالسين على الطاولات وأرقب حركاتهم عندً الكلام، وبالذات حين يضحكون؛ يرجع بعضهم رأسه إلى الخلف أو ينحني إلى الأمام أو تهتز أكتاف البعض الآخر في ضحكة رجراجة، أما أصوات ضحكاتهم فهي مختلفة أيضا، منهم من يمط صوته ومنهم من يسرع بتهدجه كالحصانً، وآخر تكون ضحكته مكتومة ويشهق في نهايتها.. أحاول تذكر متى ضحكت وكيف كانت ضحكتي وقتها، لكني أعجز، أصبحت أؤمن بأنه لو تصبح نمرة عمرك أكبر من نمرة حذائك فاقرأ على نفسك السلام.

لي صديق وحيد اسمه محسن تفوح منه رائحة مرهم فكس، يأتي إلى المقهى مرة واحدة في الأسبوع ولا يجمعني معه شيء سوى الصمت.. يجلس عند طاولتي ويرتشف قهوته بتأن وقلمّا يتكلم، يظل متطلعا إلى المارّين، وكأنه يستلهم حياة متحركة من وجودهم الحَي لتشحن حياته الجامدة، وكذلك أفعل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مثله، وبعد أن نتعب من التحديق، يودّعني حاملاً كيس أدويته ماضيا نحو داره، تلك هي عادته التي لا يمكنه التخلي عنها.. يتَّوقف تفكيري عند كلمة العادة، وأحسب أن سائلها يتكثف فينا وتتسلط علينا كلما تقدم بنا العمر، ترانا نألفها بشدة ونشعر بالطمأنينة لو تلبستنا، ونركن إلى الراحة في حضورها حتى نغدو عبيدا لها، تصير مثل قميص من شوك يؤلم من يحاول نزعه.. ألعادة هي المتحكم الأساسي في حياتنا، فإذا كنت متهيئا لأن تتعود، فإن العادة سوف تلتهمك وستستجيب لها تلقائيا، وبفضل الاعتياد ستتخلص من خوف خسارة الأشياء ومن خَوف كل ما هو مجهول.. كلما نتعود، يموت شيء فينا، ترى ما حجم ما يموت حتى نتعود على كل ما يجري حولنا؟ أعرف الآن ما معنى أن تكبر وتجعل السلوك الآلي المعتاد جوهر حياتك، قد يكون الأمر نعمة بغرض تجنب قبح ما حولك، لكنه متاهة تحجب نور التغيير والتجدد... ثمة من ينصح، إياكم وقابلية التكيف، فهي أسوأ ما عرفه الإنسان، ولكني مرتاح بوضعي هذا ولا أريد التمرد عليه ولا على عادة تلبستني مؤخراً في تخيّل أشياء لم تحدث ولن تحدث .

أبرمج يومي في الغربة في سلسلة من العادات تتوالى واحدة تلو الأخرى كحبات المسبحة، أستيقظ في ساعة معينة، أتناول فطوري وأنا أقرأ ما في هاتفي، وحين تحل الظهيرة أتمشى إلى المقهى، أجلس عند طاولتي الأثيرة وأشرب قهوتي، أرجع ماشيا إلى البيت لأبدأ بتحضير وجبة طعام أتناولها بصحبة التلفزيون، متابعا الأخبار والتحليلات السياسية حتى أغفو، فينتهي يومي ويتقرَّفص زمني على هذا النحو.. أدرك بأن هذا الهراء سينتهي يوماً ما، وسأصبح رقماً تحت الأرض بعدما كنت واحداً فوقها .

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لم يخطر ببالي أنني سأتذمر وأشكو من وحدتي وأغيّر من عاداتي اليومية، إلى أن رأيت تلك المرأة، يوم اقتربت من طاولتي وسحبت كرسياً مستأذنة مني بلطف:

ـ أراك وحيداً ولا تنتظر أحداً، هل تأذن لي بالجلوس معك؟

كنت بحاجة إلى وقت لأتغلب على شعور الارتباك والحيرة، وسرعان ما وافقت بعد تردد قصير.. أبعدتُ عن ذهني أسئلة سريعة مشروعة مثل، ما الأسباب التي جعلتها تختار طاولتي مثلاً، هل أعجبتْ بي، وماذا يحدث لو إنها أحبتني من أول نظرة؟ خيرا فعلت اليوم حين لبست قبعة أخفيت بها صلعة ناصعة.. رَحت أرمقها بعينين فضوليتين مصغيا بصعوبة إلى حديثها عن الوحدة، وعن ضرورة تبادل الحديثً بين بني البشر لأجل التواصل الإنساني، فأكتفي بهزّ رأسي.. حين دلفتْ المقهى، خلتُ أن الأمر كله محض حلم أو وهم، لكنها عادت إلى طاولتي تحمل فنجان قهوة، وبحركة ناعمة، رفعتْ عن جبينها خصلة بيضاء من شعرها، كشفت عن رقتّها وعن مسحة جمال تكتنف محيّاها.. راحت جليستي تتحدث بأحاديث عامة تلخّص أزمة العصر الراهن بجنوح الناس نحو الفردية والعزلة التي أحدثت جدارا بين كل فرد وآخر، وأبدت امتعاضا من هيمنة التكنولوجيا علىً كل مناحي حياتنا حتى جعلتنا نَنسى الألفة والتآزر الاجتماعي.. كنت أهزّ رأسي تأييدا لكل كلمة تقولها وفي بالي سؤال ملحاح، ماذا تريد مني تَلك المرأة؟ لم يسبق لي منذ فترة طويلة أن أطلت الإصغاء بمثل هذا الوقت الطويل لأي من الناس.. همّت جليستي بالمغادرة، مدّت يدها وصافحتني ثم ذهبتْ من دون أن تلتفت إلى الوراء أو أن تترك ظلاً.

صديقي الوحيد محسن الذي تفوح منه رائحة مرهم فكس ولا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يجمعني معه شيء سوى الصمت، يقلصّ محجري عينيه ثم يرفع حاجبيه الكثيفين، مستغربا من حديثي المتواصل عن تلك المرأة الغريبة، أرى في عينيهً نظرات متشككة ومع ذلك أنتظر أن يعطيني رأيه، غير أنه يصمت كعادته ويكتفي بهزّ يده، ثم يعود متطلعاً نحو المارةّ.

في الأيام اللاحقة، صرت أعتني بهندامي أكثر من المعتاد وأذهب إلى المقهى مبكرا لأنتظر قدومها، لكنها لم تأت.. وفي ظهيرة وديعة، وبينما كَان صديقي يدخل لطلب قهوته المعتادة، تجيء امرأتي مبتسمة، «كنت مارةّ من هنا ورأيتكَ جالسا، ربما سآتي لاحقا لنشرب القهوة معا، وإذا كنت غير مشغوًلً اليوم مساءً، يمكًننا أن نلتقي في الحَانة القريبة، ما رأيك؟»

يجلب صديقي محسن قهوته إلى الطاولة، في الوقت الذي كنت أبذل مجهودا لا بأس به في الابتسام وفي البحث عن كلمات أخيرة مناسبًة، لكن امرأتي غادرت على عجالة من دون أن ترى ابتسامتي العريضة.. ألتفتُ نحوه متلهفا في أن يبادرني بالسؤال عن تلك المرأة، بيد أنه يجلس قبالًتي ويكتفى بالتطلع إلى المارة .

ـ أنت رأيتها قطعا، هل تصدقني الآن؟ لا يمكن أن تنكر بأنها كانت تقف هنا عًند طاولتي، وأنها ابتسمت وصافحتني، لا تقل لي إنها كائن أثيري ليس له وجود، أرجوك.

محسن صديقي الوحيد، الذي يأتي إلى المقهى مرة واحدة في الأسبوع وتفوح منه رائحة مرهم الفكس، يتطلع بنظرة باردة نحوي ويهزّ رأسه نافياً، يخبرني بأنه لم ير شيئاً لا امرأة ولا رجلاً عند طاولتي.. أصمت حائرا في حين تتسارع طقطقات حبات مسبحته قليلاً ثم تتباطأ روًيداً بإيقاع وئيد.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نجلس بهدوء متطلعين إلى المارة، وكأننا نستلهم حياة متحركة من وجودهم الحي، علّها تشحن حياتينا الجامدتين.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مسّ من الحنين

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لم يكذب من قال إن حياة المنفى مهنة شاقة.. لك أن تصدّق يا سعيد كيف هي الحياة هنا وكيف أحياها بكل معاناتها ومصاعبها، ما زلت أعيش في تفاصيل الوطن، حتى لو لم أعش على أرضه.. ستراني أسكن في شارع يسمى شارع العرب، أصحو صباحاً وأمشي إلى أسواق تبيع منتجات عربية، وأسمع في الطريق «السلام عليكم» من وقت لآخر، ثمة ناس من مختلف الجنسيات العربية، يعيشون في مجتمع تكون فيه التعددية الحضارية أمرا عاديا.. أشتري قيمر السدة وصموناً عراقيا من سوبر ماركتً عراقيً، أحلق عند حلاّ ق عراقي، ولما أعَود، أعمل الشاي العراقي وأنا أستمع إلى الأخبار باللغة العربية من القنوات الفضائية العراقية، ثم أتناول فطوري مع بعض الأنغام العربية، آكل القيمر والخبز العراقيين وأنا أبكي، أشرب الشاي العراقي وأنا أبكي، كم تتعبني الغربة!

ليكن معلوما لديك أن بدني فحسب موجود في الغربة، بينما روحي في ألوطن، رغم أنه لم يبق الّا القليل من عائلتي فيه، ابني في أمريكا وابنتي في ألمانيا، وبقية أفراد العائلة هاجروا إلى مختلف بقاع العالم.. كم أمقت الغربة، كم أود أن أطير إلى بلادي! لا أستطيع الانسجام مع هذا البلد أبدا، لا أستسيغ عادات الناس ولا ثقافتهم ولا حتى لغتهم، ويأتي مَن يطالبنا بالاندماج، ولا يعرف أن ذلك أمر غير ممكن لمن هم في عمري.. وكما يقال، الذي يخرج من داره لا يلقى بديلاً لها وربما يقّلّ مقداره، ويقُال أيضا إن العيش في الغربة صعب الهضم، مثل محاولة أكل سفرجلًة بقضمة واحدة وبلعها.. ولا أكون مغاليا لو قلت لك إنهم هنا عنصريون لا يعاشرون من هو غريب عَنهم، وإنهم يعاملوننا معاملة غير منصفة، نسوا كيف أنهم استعمرونا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

واستغلوا خيراتنا ونهبوها، حتى آثارنا لم تسلم من أيديهم .

ارفعْ صوتك قليلاً يا سعيد.. تسألني أين أسكن؟ أعطوني شقة جيدة في الطابق الأرضي لأنني لا أستطيع صعود السلم، لا أدفع عليها سوى مبلغ الخدمات الضئيل.. كيف أعيش؟ يعطونني شهريا إعانة لا بأس بها وعندي بطاقة نقل أستقل بواسطتها كل المَواصلات مجانا، إضافة إلى أن جميع أدويتي مجانية مثل طبابتي، الحق يذُكَّر ولا أنكر ذلك، وينبغي على الغريب أن يكون أديبا، لكن أبقى أقول الغريب أعمى ولو بصير.. اللعنة على الغربَة، كم تتعبني!

سأقول لك كيف أقضي يومي.. عصرا أذهب إلى المقهى العراقي لمقابلة بعض من الأصدقاء العَراقيين المغتربين، لنتبادل الأخبار السياسية ونلعب النرد، ويطول مكوثي هناك إن كانت ثمة أخبار مثيرة وساخنة، كم أشتكي من الغربة، فهي قبر الأحياء.

أنا لا أبقى في البيت كثيرا، يوجد قرب مكان سكني بارك فيه أشجار معمرة كثيرة منً بندق وسرو وبلوط وغيرها، أتنزه فيه وأستنشق هواءً نظيفا خاليا من عوادم السيارات، وحينها، أتذكر النخلة العراقية وأُردد مَتحسرا بأن في الغربة أشجارا جميلة، ولكن لا توجد نخلة، وتظلَّ نفسي هائمة في غابًة الغربة.. في المساء، أشاهد أفلاما عربية وأستمع إلى الأغاني الطربية القديمة حتى موعد النَّوم.. أكاد أحسّ بأن بدني مجوّف، أما عقلي وقلبي فهما هناك، ستراني لا أفكر بعقلانية ولا أتنفس براحة، وغالبا ما تضيق أنفاسي.. قدُّر لنا ألاّ نعيش الحياة التي نتمناها، لاً في الغربة ولا في الوطن .

جيراني خليط من جنسيات عربية، يساعدونني أحيانا في

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الترجمة ومراجعة الدوائر الرسمية، جميعهم يشعرون بالغًربة مثلي، وأتذكر كيف أعانوني يوم ارتفع السكر عندي وأخذوني إلى المستشفى واهتموا بي، ويرعى صاحب الصيدلية العراقي صحتي وكذلك الطبيب العراقي الذي يعالجني.. وحينما أجريت عملية القلب، خصصت لي دائرة الرعاية الصحية ممرضة تزورني في البيت، وعاملة تأتي وتنظف شقتي، وقام الجيران بتلبية كل حاجاتي في التسوق طيلة فترة مكوثي في الدار.. كنت كل يوم أتذكر وطني ويلسعني الحنين، فالغربة صعبة كما ترى.

أكاد لا أسمع لك صوتا، ماذا جرى، سعيد...؟ هل أغلقت الخط أم انقطعت الكهرباءً؟ قد تكون الشبكة ضعيفة.. كنت أريد أن أحدّثك أكثر عن قساوة الغربة.. سأحاول الاتصال بك لاحقاً.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

«ظل الغريب على الغريب عباءة»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ما عدت أعرف، هل هي تمسك بي لكيْ لا أفلت منها في الزحام، أم إنها تسند مرفقها على ذراعي ليساعدها ذلك على المشي براحة وتوازن؟ لكن ما أنا متيقنة منه هو أنها كانت لا تنظر إلى عينيّ حين تتحدث:

عرفتكِ، حتى قبل أن أسألك وتجيبيني بلغتي، أنت من عندنا، عرفتكِ من دمك، الدم يحنّ.. يا للأسف، في هذا البلد لا يفهم الناس احتياجات الغريب الروحية.. العالم يتغير، ربما هذا آخر زمن، أصبح الفرد لا يهتم إلّا بنفسه، الله يرحم أيام زمان، هل تعرفين؟ كان الغريب لا يتوه لو تنقّل في مشارق أرض العراق أو مغاربها، أينما يذهب يجد من يهتم بأمره ويؤويه، وإن يسأل عن مكان ما، يجد ألف دليل يرشده إلى مقصده، بل تستضيفه الناس وتطعمه وتحسن معاملته، ينقطع لساني لو كنت أكذب.. يا حسرتي، تغيّر كل شيء اليوم، هل تحسبين أن أهل لندن هكذا فقط؟ لا يا عيني، حتى في العراق ما عاد الوضع كما كان سابقا.. اليوم الجار لا يعرف جاره، لا أدري ما الذي جرى للناس، هَل تصدّقيني إذا قلت لك بأني كنت أتفقد جيراني بين ساعة وأخرى، أتقاسم وإياهم ما نطبخه وما نملكه، وفوق ذلك أترك الباب مفتوحا، ممن أخشى؟ لا يوجد لصوص ولا إرهابيون ولا قلق ولا هم يَحزنون، ما كانت ديرة فرهود كما اليوم.. هل تتذكرين عراق زمان، من أين لك أن تتذكري؟ كنت أروح إلى الكاظم، أزور المقام وآخذ قسطا من الراحة، أشبع جوعي بعدها بالكباب، هل ذقت كبابَ الكاظم؟ لا يعجبك ربما، يعجبك ماكَدونالدز بالتأكيد، من طاح حظهّ.. بعد ذلك أشتري حلاوة دهين وأشرب شربت تمر هند.. لا أحرم نفسي من شيء، الدنيا ليست جديرة بالحرمان، ثم أرجع إلى بيتي بعد

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صلاة المغرب.. هل يخطر في بالك أن أحداً يتجرأ على التحرش بي أو يضايقني يوم كنت شابة جميلة؟ أبدا، الدار أمان أيام زمان.. أما الأسعار، فكانت معقولة جدا، بَل رخيصة مثل الماء، ليس كما اليوم، غلاء أسود، ماذا جنيَّنا؟ لا أبو علي ولا مسحاته.. لكن أخبريني، يوم خرجتِ من العراق، هل كان الدينار يعادل جنيهين كما يقول ابني؟

أتهيأ للإجابة على أسئلتها، رغم أني لا أعرف من أين أبدأ، وقبل أن ينطّ صوتي من صندوقه، تسبقني وتسترسل في حديثها وهي تمسح شفتيها المكورتين بسبابتها وإبهامها:

جلبني ولدي الوحيد إلى هنا خشية عليّ من البقاء لوحدي، ثم لأني أصبحت امرأة كبيرة كما ترين أحتاج إلى رعاية أحد.. حين جئت إلى هنا، ضاقت بي الدنيا، ديار خالية من الود والدفء، جنّة من غير بشر.. هل عندك رأي آخر مختلف عن

رأيي؟ لا أكذب عليك، شقتي هنا كلها بحجم غرفة واحدة من بيتي هناك، كل يوم أخرج إلى الشرفة فلا أرى أحدا، لا جار يمرّ، لا صديق يسأل، لا طفل يلعب ولا بائع متجَول ينادي على بضاعته، أما الشمس، فلا أعلم سبب غضبها على هذه البقعة من الأرض، الله وكيلك، مفاصلي وهنت وتئنّ ليل نهار.. حينما أخلو إلى نفسي أعجب وأتساءل، ما الذي جاء بي إلى ديرة الغرب هذه، لماذا أنا هنا؟ هل سمعتِ أغنية (غريبة من الأهل تدرون بيّ، لا واحد يحِنْ قلبه عليّ)، أنا مثلها، (صرت من غير والي، حال الضيم حالي).. أتحداك لو تكملينها، لكن من أين لك أن تعرفيها، أنتم تسمعون أغاني غير شكل.. دعيني أخبرك ما تبقى منها، تقول المطربة فيما بعد، (ردّوني لهَلي يهْلْ الحميّة).. كيف يمكن ذلك؟ لا أظننا سنرجع.. تلك أغاني

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أيام زمان، ليست مثل أغانيكم الآن.. هل وصلنا إلى محل جون لويس أم مازلنا بعيدين؟ أتعبتكِ معي، أخشى أن يكون عندك شغل وأنا أخّرتك؟ لا أريد شراء شيء من هناك في الواقع، ولكن لا بأس أن أضيّع الوقت قليلاً بالتفرج.. ماذا أقول لك، الوقت هنا غول طويل.. سُعْلوّة، هل تعرفين ماهي السعلوّة أو الغولة؟ ألم تخوّفك بها جدتك في طفولتك؟ من دون مبالغة، أحيانا أنا لا أستخدم صوتي طوال اليوم، لا أريد أن أفقد قدرتي علىً النطق يوماً، صرت أتكلم مع نفسي.. أخشى من الجنون نهاية عمري، أو من أن أموت ويكتشفون ذلك بعد أن أتعفن ويأكلني الدود.. يتصل ابني من حين لآخر، لكنه ينسى أن يفعل ذلك أحياناً، أعذره لأنه مشغول يعمل من الصباح حتى المساء.. ذات يوم، طلبتُ منه أن يكلمّني كل يوم في استراحة العمل، هل تعرفين ماذا فعل؟ وضع إشارة تذكيرية في هاتفه، إشارة تذكرّه لكيْ يتصل بأمه! أراد إشغالي بالتلفزيون، غير أني مللتُ وأنا أقلبّ قنوات فضائية ليس فيها غير أخبار عن عدد قتلى ومسلسلات مكررة لا نهاية لها.. أنا أؤمن دائما بأن المحبة شمس هذه الأرض، ما نفع الإنسان من غير مشًاعر حلوة وخير وطيبة؟ غدا أو بعده، كلنّا سنكون تحت التراب وسنقرض حبل الحياة، هكذًا ببساطة، لا نحصل إلاّ على ذِكْر طيب ومحمود، لا مال ولا بنون ينفعان.. تبقى (الحنيّة) حلوة، أنا عجوز حقا، غير أني لست خرفة.. هل صدّعتك؟ إذا كنتِ مشغولة، قوليً لي.

أضحك في سري وأتألم بالوقت نفسه، تعود مرافقتي إلى حديثها وتشبثها بذراعي، أرقب ظلها المتأرجح أمامها:

لماذا هذا الازدحام هنا في هذا الوقت من السنة، ما هذه العادات الاستهلاكية والشراء؟ ناس بعيون وبطون لا تشبع، بلا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

زحمة، عدّلي شالي وضعيه فوق كتفي، أعلى قليلاً، نعم هكذا.. الجو بارد دائما.. أنا اسمي أم حاتم، لم أسألك عن اسمك، ربما يكون ساليً أو لارا كالأسماء الحديثة.. ومنذ متى أنتِ في هذه الديار؟ ربما من سنين.. لكنك لم تنس لغتك، أحسنتِ، لا تنسي جذرك أبداً، تذكري ذلك جيداً، الإنسان هو مثل نبتة تقترن بجذرها دائماً، المنبت هو سندنا الروحي وحبل سرّتنا.

أفلتُ يدي من يدها لأؤشر نحو المتجر الذي بات قريباً، كنت على وشك أن أتفَوه، «ها قد وصلنـ...

تقاطعني مبتسمة، ضاغطة على ذراعي:

لا أخفيك سرا، أنا كنت أعرف الطريق جيدا، شقتي ليست بعيدة من هًنا، لا عليك.. لا تعرفين كم آنستِ دربي ووحدتي، تذكّري ما قلته لك.. لا تنسي العِبرة من الموضوع، أعني موضوع الـ.. المهم.. انتبهي إلى نفسك يا صغيرتي، ربما نلتقي في يوم ما.. رافقتك السلامة.

ألمح خطواتها ثقيلة وهي تدلف إلى المتجر وتخّلف ظلاً متأرجحا.. يعتذر لي رجل مارّ اصطدم به، أستيقظ من دهشتي، أقفً وسط شارع مكتظّ بمتاجر وناس وبضاعة، شارع مملوء بكل شيء ماعدا الدفء.. يبعث مساء لندني برده في مسارب روحي، وتسري قشعريرة مفاجئة في كل جزء من جسمي، ماعدا ذراعاً لي، تبقى دافئة.

* * *

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

حمّى

منشورات «ألف باء AlfYaa»

يموء قط رمادي عند باب الدار، في انتظار من يفتح له الباب ويخرج.. يتطلع عمر من فوق سريره نحو القط ثم نحو الجهة الأخرى من الصالة، يرى ابنه منبطحا على البساط ومنهمكا بالرسم والتلوين، تتناثر بجانبه أقلام مًلونة وأوراق بيضاء.. يًحاول التركيز، هل اليوم هو السبت أم الأحد؟.. حمّى ثقيلة تنتابه مع صداع يثقل رأسه.. أين هو الآن، كيف جاء إلى هذه البقعة المتجمدة من الأرض؟ يعبر بصره ستارة النافذة الشفافة نحو الحديقة، كل شيء أبيض، أشجار بيضاء، آفاق بيضاء سرعان ما تتحول إلى سواد بعد غياب صباح مع نهار قصيرين.. كل شيء أبيض وبارد والقط يموء عند الباب.. لا يقوى على التحرك من سريره، يقينا أن درجات الحرارة هي ما دون الصفر خارج الشقة، يشعرً بغيابه عن العالم وتنتهكه حمى ثقيلة مستعرة مثل صيف بلده، يقارن بين الهنا والهناك.

شمس ساطعة تبعث حرارة قوية لينضج التمر.. تجلس والدته بقربه وبيدها فوطة مبللة، تضعها على جبينه وتعود تغمسها في الماء ثانية، تبتسم قائلة، «طاح السبع صريع المرض بالفراش».. يقهقه والده قائلاً بحنان، «سأذهب لأشتري الخبز وأمرّ على الصيدلية لأشتري خافض حرارة.. »يسمع صوت تشغيل محرك السيارة كأن الزمن يمتلك خاصية الاحتفاظ بأصوات الأشياء المتلاشية.

ينتبه إلى صوت زوجته مترنمة بلحن أليف ممتزج بقرقعة صحون تغسلها في المطبخ.. القط ما زال عند الباب والثلج يملأ المكان.. تصيبه رعشة عنيفة، تتصبب حبّات عرق باردة من جبينه، يأتيه صوت ابنه كأنه من عالم بعيد، «بالشوكولاتة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

»حين يجيب والدته عن نوع الكيكة التي ستعملها له في عيد ميلاده اليوم.. هل هذا هو عامه الرابع أم الخامس؟ عبثاً يلجأ إلى ذاكرة تخفق في إنقاذه.. ينسى كل شيء إلّا أن يلوم نفسه، هو العاق الذي انشغل عن ذكر أهله، ينتظر أن تنزل دمعة من عينه بلا جدوى، يتعجب من مشاعره الجاحدة، ويعود إلى زمن ما برح يلبث في ذاكرته.

تصنع له والدته كيكته الخاصة في عيد ميلاده العشرين، يحتج على ذلك لأنه لا يريدها أن تعامله كطفل صغير، لكن حمى شديدة تقعده في سريره، يحاول النهوض، تمنعه والدته برفق، تعمل له حساء مرق الدجاج، يشغّل والده التلفزيون على قناة الأخبار، تلوح من النافذة حديقة بيتهم الواسعة تغمرها شمس وضيئة باهرة، وتتمايل ورود قوس ورد الياسمين برقة جرآء هبوب ريح ناعمة.. يأتي صوت الأم مخاطبة والده، «لم يأت الفلاح اليوم، اسق الزرع حينما تغيب الشمس، لا تنشغل بالأخبار، ستون سنة وأنت تتابعها، ما الذي تغيّر؟ الحال نفسه.»

يتعرق من الحمى وتبتل ملابسه، يغمض عينيه لبرهة ويفتحهما، مازال الثلج يتراكم على النافذة بفعل ريح قطبية شديدة ويغمر الفضاء بياض ناصع.. يثير ابنه ضجيجا على الورق، يرسم بقلمه ويطلق صيحات تناسب حدث ما يرَسم.. هل ما زال القط يموء؟ لا يسمع له صوتا الساعة، ربما فتحوا له الباب فخرج أو ربما قنط وراح يغطّ في نوم مضطرب، لا يسمع صوت الريح ولا دندنة زوجته، ما عاد يسمع سوى صوت نحيب والدته ويتذكر ذلك اليوم المشؤوم .

في ظهيرة تنزّ لهبا أهوجَ، يرن جرس الباب بإلحاح، ينهض

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

متثاقلاً من قيلولته، يرَى صديقا له عند الباب مرتعباً، يسلمه مظروفا مفتوحا، يقرأ الجملة الأُولى، «تحذير، اتركوا البيت.. »وفي تلكً اللحظًة، يسمع صوت دراجة نارية مسرعة يعقبه صوت إطلاق نار، يتلقف صديقه المصاب بيديه قبل أن يهوي.. لا فكرة لديه عن الأمور التي تنتظره، فيحسم أمراً لا مناص منه.. حين يعزم على الهجرة، تتضرع إليه دامعة العينين، «بدّل اسمك يا ابني، يمكننا بيع بيتنا والانتقال إلى مكان آخر، سنترك هذا المكان بأسره لو تشاء.»

توقظه جلبة عالية في المطبخ، ربما أسقطت زوجته غطاء الوعاء أو شيئاً آخر، يطلق ابنه صيحات مفاجئة أثناء لعبه، يضرب دمى بلاستيكية مقاتلة إحداها بالأخرى صارخا، اقتله.. اقتله.. طاخ.. طاخ.. بم.. مات.. تؤلمه عظامه وعضلاتهً وروحه.. القط بدأ يموء من جديد عند الباب والثلج يتساقط غزيرا، ما أصدق من قال إنه في غياب الشمس ينبغي أن نتعلمً كيف ننضج في الجليد وهو مازال يافعا.. تهوي يده على حافة السرير ويلتقط تلفونه، تأتيه رسالة منً رب عمله، صاحب سيارة التاكسي، «كيف أصبحت اليوم؟ لا تأت للعمل، الطرق كلها مغطاة بالثلوج».. يغيب في نوبة حمى ترجعه إلى بلده مرة أخرى.

ينصت والده مكلوما لأغنية، (مو بدينا نودعّ عيون الحبايب)، يأتي الجيران لًتوديعه مع توصيات بأخذ الحذر والرجوع بعد تحسن الوضع، تنتحب أمه، «عدني يا عمر بأن تحضر ساعة موتي وتكفنني بيديك، تلك هي وصيتي، لا تغب طويلاً أنت وخطيبتك، أرجو ألّا تنسى أهلك وألّا تغرّر بك الغربة يا ولدي.»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يقفز القط إلى سريره ويوقظه، يلتفت نحو الحائط وتقع عيناه على تقويم ورقي ملصق عليه.. يحدّق فيه لبرهة، تلفت انتباهه دائرة سوداء مكتوب فوقها، «الذكرى الخامسة لوفاة الوالدة.»

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

«لن نتلاقى، لكننا لا نفترق»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في صباح نيئ يتماهى مع خواطر غير ناضجة، يتقدّم أحمد امرأة وظلّهّ يقترب من ظلّها.. بين محطة القطارات والشقة مسافة لا بأس بها، وفي خاطره تتضارب أفكار تقرب من الندم، «كيف يحدث هذا وبتلك السرعة؟ ربما لو انتظرتُ أكثر قليلاً.. لكن ماذا أنتظرْ؟ ها أنا معبّأ بعمر وتجارب تكفي لحكم الصين وروما معاً، وما بقي من عمري ليس أكثر مما مضى.»

يتفاخر بثمار حكمته ومعرفته علنا بين نظرائه، ويكتم خشيته في سرّه من أن أفكارا اعتنقها ستَّنتهي يوما ما، لتكون عصيراً متعفنا في خضم تطورً وتغيّر كل شيء حولَه في هذا العالم.. يختلسً نظرة إلى الوراء وهو يسحب حقيبتها، يراها تتلفت باستمرار فيما يحيطها من بيئة جديدة وطبيعة غريبة عليها، يتمعن فيها خلسة، ليست فاتنة وليست دميمة، يوحي مظهرها بجمال يقرب من مَلاحة، تؤكد ذلك أخته، «شكلها مقبول وعمرها معقول، ما نفع جمال أجنبية لم ترتح معها وانفصلت عنها»؟ تزيد أمه، «بنت بلدك أرأف بك من الأخريات يا ولدي أحمد، تؤنس وحدتك وتجلي عنك هموم غربتك، »يضيف أخوه ضاحكاً، «وتشبعك أطباقاً عراقية وتكبّر كرشك.»

لا تهمه ملاحة وجه وهو المتبحر في حكمة وعقل، ولا وقت لديه لعزلة ووحدة وهو المنشغل ببحوث وعلم وحقائق، أما معدته، فهي آخر ما يخطر على باله.. كيف اقتنعَ بعد لأي، أن يحادث تلك الغريبة عبر جهاز العصر، الكومبيوتر، النعمة النقمة؟ أمر ينبغي لاحقا أن يجد له تفسيرا عقلانيا ومنطقيا..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حين يقف أمام حشْد كبير في مؤتمراتٍ وندوَأت ومحاضَرات، لا تهتز نبرات صوته وينطلق متحدثا بلباقة وثقة، لكن ما بال صوته يرتعش لدى محادثتها وسماعةً لصوتها؟ في البدء، اعتقد أنه لا ضير من التعرف عليها واختبارها، سيأخذ نزرا يسيرا من وقته ويحادثها ويحلل شخصيتها ويعرف دواخلها وَدوافعَها.. لمَ هي لطيفة هكذا، هل تراها تتصنع الطيبة واللطافة ويوم تحصل على مبتغاها، في أن تأتي إلى بلد أجنبي وتحصل على جنسيته، حينذاك تحصل على مبتغاها وتظهر على حقيقتها؟ ما الذي تريده تلك المرأة منه، لماذا لا تتركه وشأنه لحياة اعتاد عليها منذ زمن؟ لو افترض أن تلك المخلوقة الناعمة ستعيش معه، فإنه سيضطر إلى تغيير عادات ونمط حياة ألفها.. سينكمش وقت له مخصص لدراسة وبحث وقراءة، وبدلاً من ذلك، سيذهب إلى السوق لشراء مستلزمات البيت، سيقوم بالتزامات اجتماعية جديدة، ومن باب الأدب، سيضحّي بجزء منه إن رآها ضجرة، فينهض من مكتبه مفارقاً أوراقه لملاطفتها، ومن باب الالتزام الزوجي، سينام معها مبكراً ويترك عادته في السهر، ولمّا تتضايق من سجائره، سيدخن خارجا أو ربما سيترك التدخين كليا لأجلها، سوف لن يعجبها أثاثٌ قديم للشقة، ستضطره لشرَاًء ستائر وأرائك حديثة وستتزايد نفقاته، وربما تتطاول فيما بعد وتطلب منه تغيير ملابسه أو حتى هيئته، «عطرك استبدله بآخر حديث، وشعرك اصبغه وغيّر تسريحته، وهذه شواربك تزعجني، احلقها»، ومن الجائز أنه سينصاع لمطالبها وسيواظب على صبغة شعر يكرهها ولكنه لن يتخلى عن شواربه أبداً.. كلا، إلاّ شواربه.

مُحالٌ العيش والحياة مع هذه المرأة، سأرجعها من حيث أتت بطائرة تغادر اليوم، سأقوم بواجب الضيافة نحوها،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وأدعْها ترتاح قليلاً ثم أرجعها من حيث أتت.. تحتمّ عليك ذلك يا بروفيسور أحمد، لا تسمح لها باستلابك، لا تغيّر قرارك دموع تنحدر على وجنتيها، ربما هذه هي طبيعتها وسلاحها، ستلجأ إلى الابتزاز العاطفي في المواقف الصعبة.. ذلك هو الفارق الأساسي بين الرجال والنساء.. لم تكترث كثيرا يوم أخبرتها عن طبع عقلاني وواقعي أتميز به، يتناقض ويتصَادم مع طبيعة عاطفية وحالمة لها، بل راحت تقول مبتسمة، «التباين والاختلاف جوهر اتساق الحياة وتكاملها».. لا أدري من أي كتاب حفظتْ تلك الجملة.

يخطر في باله عدم اهتمامها لمّا كان يحكي لها عن بحوث له وعن أهميتها، لم تقرأ أياً منها بالتأكيد، ينتبه إلى إسهابه في الحديث عن نفسه، وبما أنه عالي التهذيب يحوّل حديثه عنها ليسألها عن الكتب التي تهوى مطالعتها له، تصمت برهة وتقول، «تذكرت برنادشو يوم يتكلم مع صديقته عن نفسه طوال الوقت، حتى سألها مستدركاً، خبّريني عنك، كيف حالك، وما رأيك بآخر كتاب صدر لي؟».. تسأله بخبث بريء عن سر ابتسامة غامضة بدت على فمه حينها، هل هي إعجاب، أم سخرية، أم توعّد، بأن انتظري، الويل لك مني يا ابنة الناس.

ها قد وصلنا إلى الشقة.. ستشرب قدحا من الشاي وترتاح قليلاً، وسأرجعها بعد ذلك إلى المطار.. ربمًا ستلجأ إلى حيل أنثوية، قد تضع يديها حول عنقي وتهمّ بتقبيل ودلال.. هيهات أن أضعف.. سأنزل يديها ببرود وأجعلها تفيق من أحلام مستحيلة، لا تجدي مع حكيم مثلي هكذا انفعالات، لست أنا من يضعف أمام شهواته.. لو أبادلها الغرام والهيام، سأجعلها تحس بنشوة الانتصار، وستقوم بطلب مزيد من تنازلات تطأ مسالك ذل واستكانة وهوان.. سيكون شكلي مضحكا وأنا متجرد من

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

رجولــة ووقــار ورصــانة.. أعلــم أن الانصــياع للنــزَوات وللعواطــف هــو أول علامــات التخلــي عــن القــوة، وفــي الخصوص، لمن هم بعمري ومركزي .

داخل الصالة، تلامس كّفّها كّفّه عندما يناولها الحقيبة، تشهق بفزع لبرودتها، تأخذها بين يديها، تفركهما بوداعة ومحبة، ويبدو عليها الخجل بعد أن تدرك أنها ربما تكون قد تجاوزت حدودها بسرعة، لكنها راحت تقول بصوت فيه حياء، «أعتقد أن من تكن يده باردة، يكن قلبه دافئا».. ترفع بصرها نحو مكتب في ركن بارز من الصالة، تدنو منً مكتبة وكتب، تتلمس المقعد بحنوّ ورقة، تعدّل أوراقا منثورة، ترتب أقلاماً في حزمة أنيقة، تستأذنه وتتجه نحو النافًذة.

حين تزيح ستائر الصالة المعتمة، تنفض شمس بهيّة دفئها على المكان وعلى روحه، تفتح نوافذ مغلقة في الصالة وفي حياته.. يرمقها وسط هالة شعاع متسرب، ويرقب مذهولاً ابتسامة أليفة تتسع على مبسمها، يتلعثم حينما يدعوها لترى الشقة، «تعالي وتفرجي على معالم الشقة، ثمة شرفة واسعة نستطيع شرب الشاي فيها بعد الغداء، وسأريك معالم المدينة يوم غد.»

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مسرّة صغيرة

(إلى سلفيا آن كلوفر)

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

في طريقها إلى المتنزه، يبدو لإخلاص النهار عادياً كما الأمس.. يحجب سحاب قطني شمسا خريفية تكشف عن ضوئها بين الفينة والأخرى، كأنها تلاعبً السحاب لعبة توارٍ ضوئية.. تزيح عن المصطبة أوراقا متساقطة من شجرة تتوسط الحديقة، وتخلد إلى مكان اعتًادت الجلوس فيه منذ زمن لا تتذكر بدايته، تتناول شطيرتها وتطعم حمائم تجمّعت عند قدميها، ترقب ظلّها على الأرض فتراه مشوشا وبلا ملامح، تمسح نظارتها لتقرأ صحيفة يومية كما فعلت يومً أمس وكل يوم، تجول ببصرها فيما حولها.. اعتادت على هذا المكان، ألفت تلك المصطبة، اكتست بملامحها واكتسبت صمتها وتوحّدت معها، تفتقدها إن لم تأت إلى الحديقة، وتنزعج لو جلس عليها أحد غيرها.. ما أروع الركون إلى راحة وهدوء! تمرّ في خاطرها حياتها التي كانت في هذا المتنزه كشريط سينمائي .

يوم انتقلت أسرتها إلى الدار الجديدة، اعتادت والدتها أن تصحبها في نزهات متواصلة إلى هذا المتنزه.. كانت لا تمّلّ أبدا من ملاحقة حمائم متمهّلات ومن مراقبة فراشات ملوّنة، ومطًاردة سحب متحركة وظلالها على حشائش وأعشاب تلك الحديقة الغنّاء.. أما في أيام الشتاء، فكانت تتراشق مع آخرين بكرات ثلج صغيرة تجمعها بكفيها الصغيرتين بمرح وجذل.. لولا ضجيج ومرح أشقياء صغار في ساحة الألعاب القريبة، لغدا المكان مناسبا تماماً لراحة نفسية ولإغفاءة ممتعة على بساط ذكريات عائمً.

تمرّ من أمامها صبيتان تحاولان التشبه بالكبار في طريقة لبسهما ومشيهما وتزيّنهما، مثلما كانت تفعل في المتنزه ذاته

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وهي بعمريهما مستحثةٌ قدوم أنوثة متبرعمة.. يومها، كان لديها مع صديقتها، «أسرار خطيرة» عن صبيان يتتبعونهما ويغازلونهما، وتحت تلك الشجرة كانتا تقهقهان وتتسابقان في الحديث عن مغامرتيهما، حتى تفوح في الحديقة حكايا فرح وعشق وليد تحتضنها الطبيعة بحنانها.

تتطلع إلى فتاة جميلة مع شاب وسيم على مصطبة مجاورة، يوشوش في أذنها فتروح باسمة ثم تضحك ضحكة ناعمة، تبتعد بدلال وغنج عن عاشق يرنو إلى ارتشاف قبلة من حبيبة.. ذات زمن، وقرب بحيرة بط في المتنزه ذاته، اتفقت إخلاص أن تلتقيه.. كان شابا ممتلئا فتوة وثقة ووسامة.. كم كان كلامه ساحرا وجميلاً، وكَم كانتْ أحلامهما باهرة وضّاءة! طافت ببصرها بأحثة عن شجرة بلوط عجوز حفر اسميهما عليها يوماً، ربما قطعوها .

تغيرت المعالم والأشجار، لكن محطة القطار ما تزال قريبة من هنا، يأتي منها مارّون قاطعين المتنزه إلى دورهم اختصارا للمسافة، محمّلين بأكياس وحقائب تسوّق وهموم يوم عملً طويل، غير عابئين بورود وأشجار وأطيار.. كانت إخلاص في أول شبابها مثلهم، تهرع إلى بيتها عبر المتنزه نفسه، يثقل مشيتها ما تحمله من أكياس ومشتريات، ولما تصل إلى دارها، تنشغل كليّاً حتى وقت النوم بأعمال شتىّ، تعدّ طعاما، ترتب المنزل، تغسل الصحون، تتابع دراسة أولادها، تجَلس أمام شاشة التلفزيون أو تفتح كتاباً وتقرأ، حتى تغفو من تعبها على أريكة في الصالة.

«اليوم لم أعد طفلة تلعب ولا صبية تعشق ولا أمّاً عاملة تقطع الحديقة بأكياسها وحمولتها، فتسرع إلى دارها لإعداد

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وجبة لمساء مزدحم، لقد كبرت، كما لا يوجد أحد ينتظرني في الدار.. هل يعقُل أن لم يبق لك شيء سوى هذه المصطبة يا إخلاص، وهل كل ما تفعلينه اليوم هو الجلوس عليها والتأمل، ألا يحسّ بك ويحتاج إليك أحد آخر غير قطعة الخشب تلك؟"

تهزّ إخلاص رأسها وتعود إلى حالتها الاعتيادية مختبئة بين ثناياها، تبعد عن بالها كل تفكير بماضٍ أو بآتٍ، بل وتستريح لحياتها ونمطيتها التي لا تكلفّها عناءً وجهداً هي في غنى عنهما راهناً.

تمتعض عندما تقترب منها طفلة فتسألها، ماذا تريدين؟ تقف الصغيرة وجِلة مترددة على مسافة بضع خطوات منها، تنظر إلى كرتها المتدحرجة بين قدمي إخلاص تحت المصطبة.. تشيح ببصرها عن تلك الصغيرة.. ستصمت ولا تلاطفها، إنها تريد أن تستمتع بخلوتها، يكفي الجلوس على مصطبتها والاستمتاع بصفو سكونها.

تنظر مرة أخرى إلى وجه الطفلة فترى ابتسامة بريئة على ثغرها، تسحرها وتحرّك شيئا فيها يجعل ألوانا يانعة تشعّ من داخلها، شيء غريب يهوي بعَذوبة في أعماقهًا ويذهلها كرعشة لذيذة مفاجئة، تسكنها اللحظة روح جذلة توّاقة تنبض بحياة وألفة، «هيا اقتربي يا صغيرتي، لا تخافي.»

تبقى الطفلة في مكانها، بينما تمسك إخلاص بكرة تدحرجت تحت المصطبة وترميها نحوها.. ترتسم على وجه الطفلة علامات ارتياح واطمئنان، فتبادر برمي الكرة مرة أخرى نحوها، فتعيدها إخلاص بدورها إلى الصغيرة ضاحكة.

يبتسم مارّون لما يرون امرأة عجوزا تقفز مع الطفلة ويقفز ظلها معها، ثم تجري وراء الكرة وتضَحك بصفاء وانشراح..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أحد المارّين، رجل يقارب سنّها، يقف أمامها برهة مبتسما، يغمز لها بعينه ويتمنى لها يوماً بهيجاً.. تبتسم هي الأخرىً وتطوف عيناها في المتنزه فتراه أجمل .

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وقت سائل

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أمعن النظر مليّا في غشاء نهار سائل، غشاء يغلفّ المدينة بغيوم عابثة، غيومً تنيخ بثقلها على هموم وسموم تلوث بيئية، بيئة رمادية سائلة، تحتضن بشرا بلا ظلال، يبحثون عن شيء صلد يستندون إليه، شيء يكونً صلداً، لأننا ما عدنا نطيق كل ما هو سائل في هذا الزمن.

لو تغدو متقاعدا كهلاً وحيدا، يسيل زمنك ويرتخي مثل ساعات سلفادور دًالي وعقاربهًا المتدلية في لوحاته.. ساعاتي مائعة في الغربة، سترونني أتسكع في الشوارع، أركب الحافلة وأتفحص الراكبين، علنّي أجد في شيء ما أو شخص ما، حكاية أرويها أو قصة أكتبها، إشغالاً لوقت رخو مائع، وقتك السائل يا مصطفى.

تتوقف الحافلة عند كل موقف فيترجل منها ركّاب ويصعد آخرون، أضع الجميع في مختبري الذهني، أحلل شخصياتهم ونوازعهم في أوقاتهم السائلة من حركات أجساد أو حديث، وغالبا ما يرافق ذلك تشويش وفوضى سائلة حسب ما يمليه علينا وًعينا الداخلي، في الواقع، إنها بسالة عقلية أن تفكر بدون اضطراب وبلا تداخلات معقدة غير إرادية للعقل الباطن، في مسيرة حياة تشبه هذه الحافلة الحديدية، يصعد إليها ناس وينزل منها آخرون.

يسيل تفكيري في جداول وسواقٍ تجري في اتجاهات متشعّبة، تسبح فيها أفكار نافرة قافزة، فيخطر في بالي بيت شعر لشاعر لا أتذكر اسمه اللحظة: «أين الفؤاد أراحل في إثرهم، أم سائل ما بين دمع سائل.»

هل نسيت النار مشتعلة تحت القدر يا مصطفى؟ لا، لا أظن، ولكن ما نسيته هو هاتفي الجوال، تركته في البيت لأنه غير

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

موجود في حقيبتي اليدوية.. ها هو مطعم جديد حّلّ مكان حانوت كان يبيع الكتب، وها هي امرأة خلف مقعدي تثبّت هاتفها بمنديل تلفه حول رأسها وتتكلم بصوت عالٍ، وتطلع فتاة جميلة إلى الطابق الثاني بخّفّة.. يصعد طلاب مدرسة فتعجّ الحافلة برائحة وجبات سريعة يتناولونها، يتجشأ أحدهم بصوت عال ويضحك عليه زملاؤه فيشاركهم الضحك.. أنتبه إلى فتاة يافعة تخاطب شابا بقربها، غير أنه لا يعيرها اهتماماً، «أنت تكذب، هذه ليستً المرةّ الأولى التي تخونني فيها، انتهى كل شيء بيننا، فقدت الثقة بك، اغرب عن وجهي»، يسارع الشاب بالنزول عند موقف الحافلة التالي من دون أن يلتفت إليها.. تنظر إليه نظرة ربما هي الأخيرة وهو يبتعد، تمسح بيدها دموعاً صامتة تجعل قلبي منقبضاً متعاطفاً معها.. تخطر في بالي أغنية أم كلثوم «يا قلبي آه، الحب وراه، أشجان وألم وأندم وأتوب.. أمرّ عذاب وأحلى عذاب، عذاب الحب للأحباب».. أنا على يقين بأن تلك الشابة ستبكي طويلاً، وسيسيل دمعها كأي عاشقة.. ما أقسى تلك المفردات؛ التخلي، الفقد، الغدر، انكسار المشاعر، الخيانة، وما أصعب جروح القلب! مسكينة، أظنها ستعود منتحبة ساخطة ومتألمة إلى بيتها لتستمع إلى أغان مكسورة سائلة، وربما ستكتب له كلمات عن لواعج هوى واشتياق مليئة بالتوسلات.. يا للصغيرة! هل ستتمكن من تفادي ذكرياتها معه؟ ربما ستنهي حياتها تلك الشقيّة.. لا أستطيع الجزم بأنني أحمّل الفتى الذنب كاملاً، لابدّ أن تكون فتاته قد ساهمت في وصول العلاقة إلى طريق مسدود، ومع ذلك كان موقفه سائلاً، لو صدق عزمه وخلصت نيّته لما تركها باكية من دون شرح موقفه، حتى لو تطلبّ الأمر اعتذاراً، كلنا نخطئ.. سيرجع إن كانت هناك مساحة لها في قلبه.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يخطر في بالي، لو كانت ثمة نصائح أقدّمها بعيدا عن لغة التصبر والمواساة فسأقول لها، هوّني عليك يا فتاة، أسَّعي إلى تقليل الخسائر وإيجاد مخرج عقلاني لأزمتك، بمبادرة ومناورة لا تفقدك احترامك لنفسك.. ابكي، فذلك ليس دليلاً على ضعفك، وإن لم ينصلح الحال، لا تحاولي العيش في ذكريات مؤلمة، ما من شيء يجعلك تهدرين سعادتك ووقتك كما الذكريات، اتركي ما لا يفيدك إلى ما يفيدك.. لو يقدّر لي أن أتبادل حديثاً معك، سأنتقي أكثر الكلمات أناقة، أنسّق فيها خبرات عمر من دهر مضى، سأقول مثلاً، ها أنت ما زلت شابة وفي...

يرنّ هاتف الفتاة فجأة وتجيب، «هالو.. أنا ذاهبة للتسوق الآن، وأشعر برغبة في الخروج مساءً، هل ستأتين معي؟»

أمدّ يدي نحوها بمنديل أخرجه من حقيبتي لتمسح دموعا مفترضة، أجدها تبتسم وتضحك عالياً قائلة، «تخلصّت من ذلّك الغدّار الحقير اليوم، «سون أوف ذه بج»، ينبغي عليّ تجاوز الأمر سريعاً، انتظريني في دار السينما، سنستمتع بوقت جميل بالتأكيد.»

أسحب يدي الممتدة وأرجع المنديل إلى حقيبتي، وأسحب إلى حلقي نصائح مواسية كانت على وشك الانطلاق.. يبدو أن الحياة ليست قائمة على معرفة ما حدث فيها سابقا وعلى تجارب وتراكم عمر فقط، بل على تقبّل أي تغيير، حَتى لو كان سائلاً.. ما يواسيني هو قناعتي بأن الحب كان أجمل من كل تلك السيولة السائدة اليوم.. هل أنا على حق؟

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ياسمينة أليتا

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لم أرها منذ فترة طويلة، سألت عليها مؤخرا بشكل عارض وعلمت ما جرى لها.. في هذا البلد، من غيرً الطبيعي أن يسأل أحد عن الآخر ويتفقده، كل الأمور تجري بصمت، بما فيها الزواج والموت والولادة.

كلما أصعد إلى شقتي، أصادفها بلونها الخابي وبالقليل من شعر شائب في رأسها، تطلع أمامي فجأة محمّلة بالنصائح والإرشادات والتحذيرات، «لا تسقي الزرع مرارا لأنه يؤثر على نباتاتي تحت شرفتك وبالذات الياسمينة، يفضّلً أن لا تضعي أصص الزهور قرب الباب لأنها تساعد على تجمع الحشرات، وبما أني أنام مبكرا فحذار من المشي السريع في الشقة ليلاً أو القيام بأداء التَّمارين الرياضية بعد العاشرة مساءً، ولا تضعي العطر عند باب الدار لأنه يصل إلى أنفي فيسبب لي حساسية، كما أرجو أن تخفضي صوت التلفزيون لأنني أنزعج من صوت الموسيقى».. تطول قائمة ممنوعاتها وتطول مضايقاتها لي، ولا تنفكّ من تعكير صفو مزاجي حتى أضطرّ إلى رفع صوتي عليها يوماً رافضةً لكل قيودها.

كنت محظوظة جداً، على الأقل في البداية، في الحصول على تلك الشقة الصغيرة ذات الموقع الهادئ المرتفع في أطراف المدينة، تسحرني كثرة الأشجار والحدائق حولها، وقربها من المواصلات العامة، مما يساعدني على تقبل حالة الوحدة المستجدة في حياتي .

في أول يوم لي في الشقة الجديدة، تدقّ بابي امرأة كبيرة في السن، تحمل معها مصفاة صغيرة لحوض الماء في المطبخ، وتطلب مني استخدامه حتى لا تنزل أوساخ البالوعة إلى شقتها، وفي محاولة عسيرة للابتسام، وبين شعور الاستغراب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والاستهجان، أرحّب بها.. تباغتني بالأسئلة، من أين أنت، وكم سنة لك وأنت في هذا البلد، وهل أنت وحدك؟ وقبل أن أفتح فمي للإجابة عن بعض أسئلتها، تردف بالقول، «أنا هنا منذ عشرين سنة في هذه الشقة»، أردت أن أجيبها، غير أنها تدير لي ظهرها فجأة قائلة، «اسمي أليتا، وأنا من قبرص.. ثم تتوقف برهة وتلتفت صوبي بنظرة مكسورة وصوت هامس، «أنت وحيدة؟ وأنا كذلك»، تنزل بمشقة، وأراقب ظلّها المحدودب على السلم.

ستأتي أيام أتجنب فيها الاحتكاك مع جارتي أو حتى النظر إلى شقتها من الشرفة، ومع ذلك كانت تنتهز أي فرصة لتذكرني بوصاياها المقدسة كلما تصادفني، وتشكو لي حال شجرة الياسمين التي تعجز عن سقايتها بسبب مرض الرعاش، وعلى الرغم من امتعاضي من صاحبتها، أبدي استعدادي للقيام برعاية تلك الشجرة التي تمتد لخارج سياج الحديقة الصغيرة وتنشر عبقها في أرجاء المكان.. تفتح أليتا لي قلبها وتحكي كيف أن زوجها الراحل جلب نبتة الياسمين من بلادهم لأنه كان يحب رائحتها الزكية، فصارت بعد حين ترمز إلى وطنهما الذي تركاه عندما كانا شابيّن.. تصير عندي رائحة ورد الياسمين المختلطة مع البن التركي لقهوة أليتا، علامتين مميزتين لوقت الصباح.

أنشغل عنها وعن ياسمينتها بأمور تخص العمل لفترة طويلة، حتى أنتبه إلى اختفاء رائحة الورد والقهوة.. أنزل إلى شقتها وأطرق بابها، تخرج لي امرأة مع طفل على ذراعها، أستفسر منها عن أليتا، فتخبرني بأنها لا تعرف شيئاً عمن كان يسكن الشقة قبلها.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يـزداد **فضـولي** لأعـرف مصـير أليتـا التـي تركـت شـجرة الياسمين من دون رعايـة.. وبعد تقصٍ وسؤال، أعلم بأنهـا فـي دار الرعايـة **الاجتماعيـة** والصـحية لإصـابتها بمـرض الرعـاش والخـرف، ستمكث فـي ذلـك المكـان مـن دون أن تعلـم بمـا حّـلّ بشـجرة **الياسـمين** التـي رماهـا الجيـران الجـدد فـي القمامـة، بعـد يباسها وموتها.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منفى الآمال

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أرتدي معطفي السميك وأذهب إلى صديقتي العائدة تواً من بلادي.. يصيبني قلق وأرق بعد توقف أخي ناصر عن الاتصال بي، فلعلها تطمئنني على ما يجري هناك.. يطوف بصري فيما حولي، ويقع على أبيات قصيدة تزينّ ركنا من عربة قطار الأنفاق «ولهذا أقيمُ هنا مؤقتا.. أتسكعُ وحَيداً ممتقع اللون، وإنْ ذَبُ لُ نبات البردي في البَحيرة، وأحجمت الطيور عن شدوها».. غالبا ما تلصق أبيات من الشعر على جوانب العربة لإغناء وقتً راكبين يتحاشى أغلبهم النظر إلى آخرين أمامهم، تراهم يقرؤون الجريدة أو يتطلعون في الهاتف.

لسنين فارعة، يرافقني نفور من مكان لا أريد أن يغدو بديلاً عن آخر بعيد.. لا أستطيع تفسير مصدر ذلك التوق، هل هو حلاوة ذكرى وحنين لماضٍ أم وفاء لمرتع طفولة وصبا؟ لا أفقه الباعث الرئيسي لسر تلك الوشيجة القوية التي تمنح حاضرَ مكانٍ أعيش فيه لقب منفى أوجل حياتي فيه، وأجففها ثم أعلبّها في قارورة محكمة لأحفظها في خزانة آمال قد تحدث يوماً.. في ذهني، تتحول شجرة البلوط إلى نخلة باذخة، وطعام يومي إلى أكلات شعبية عراقية، وكل فاكهة لذيذة إلى تمْر، ويلبس نهر التايمز مياه دجلة والفرات، وتصير أوبرا وسيمفونيات، أغاني لناظم الغزالي، حتى ظلّيّ يكون باهتا هنا.. أتحفظ على علاقة مع جيران أجانب فيغدو يومي ثقيلاً ًمحدّبا بأخبار ما يجري في بلدي.. أسحب من جوفي الضحكة وأعَيدها مكسورة إلى قاعها، كيف يتسنى لي فرح وهناك من ينتحب على أرضي، وأنىّ لي أن تستخدم شفتي للابتسام وأنا بعيدة عمّا يسعدني من ناس وتربة وشمس؟ أتيقن تماماً أن غرسي لا ينبت إلاّ في تربتي، في خيباتها وطعناتها ولعناتها وندوبها وطيبتها وحماقاتها وفوضاها.. هجينة حياة أضعتها من

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

دون أن أعيشها، وها هو عمري وعمر آمال نحيلة يمضيان بعجالة وتلبك، لا ألبث أضفر بجديلة أحلاماً خائبة وخابية حتى يرجع سالف زمن انقضى ومضى.

عبثاً تحاول صديقتي إقناعي بالعدول عن التفكير بماضي وطن، «احتفظي به في سلال ذكرياتك وامضي، لا تتبرئي منه، بل ابرئي، عيشي عمرك، هذا البلد الذي احتضننا ليس سيئا لهذه الدرجة كما تعتقدين.. أنا أطلق على نفسي بأني «لنْدّاقية» بتفوق، أحب لندن والعراق في الوقت ذاته.. عليك الاستمتاع باللحظة وبالحياة، وطالما بقيت تستحضرين محنة بلدك، فستعيشين أعواماً في جفنات مرةّ من تغربّ وترقبّ ورجاء على أمل الوصول إلى مرفأ يتحسن فيه الحال، توسد كثيرون الثرى وغابوا متدثرّين بأحلام متعذرة دفنوها معهم عبثاً».

يثقل خطواتي برد صخري، يسرّب هموما حجرية تجثم على صدر المساء، غير أن صوف الذكريات يمنَّحني شيئا من الدفء وكثيرا من الظلال، تضجّ نفسي بصرير ماضٍ يفتح أبًواباً على مصاريعهًا، لا يمنح زمنا حاضراً بطاقة مرور أو حضور.. يخفف كلام أخي كارثية ما يًحدث كلما أتصل به ويصبّرني بحكمته على لوعة الفراق، «تلك هي مرحلة انتقالية حتمية ستنتهي وقتا ما، من الطبيعي أن يكون جنينُ واقع أعوامٍ طويلة عجافً مشوّهاً، لا تستعجلي الأمر، تجاوزَ بلدنا فترات غزو مغولي واحتلال عثماني وديكتاتورية وأزمات، كيف لا يمكنه تجاوز ما يجري اليوم؟ الصبر هو مفتاح تعامل كل حليم مع أي أزمة، لو كل فرد يساهم بدوره في خدمة هذا البلد ويخلص له لا يحدث ما يخُشى عقباه، الوطن ما زال بخير».. لا أعرف كيف يتعامل أخي مع المصاعب والنوائب بحكمة،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ولـولا كلماتـه لمـا بقـي منـي شـيء يـرمّم روحـي قبـل تفتتّهـا وتلاشيها في غربة أحس فيها بأني طارئـة ومقصية، وفـي حالـة خصام دائم مع الذات .

يتخلـى شـاب عـن مقعـده لامـرأة مسـنّة، تعتـذر شـابة منـي بلطف حين تلكزنـي بحقيبـة تحملهـا علـى ظهرهـا، تصـعد إثرهـا مجموعة من شباب ضـاحكين بصـخب، يصـرخ أحدهم بمـرح، ربما حينما تواجهه سحنتي الكئيبة، «ابتسموا طالما أنتم أحيـاء، الحياة جميلة».. أبتسم مجاملة.

أنزل مـن محطـة القطـار وأتمشـى نحـو بيـت صـديقتي.. يشـتد برد بلواذعه مع رياح شرسـة تغُيـر علـى أوراق الشـجر الباقيـة، في الوقت الـذي تتواصـل فيـه أصـوات مفرقعـات ناريـة احتفاليـة فـي الأفـق، يـرنّ هـاتفي فجـأة وأتعـرف علـى رقـم أخـي ناصـر، أبتسـم وأسـتعد لسـماع أخبـار مفرحـة أنتظرهـا، غيـر أن صـوتاً ضـعيفاً مخنوقـاً يـأتيني مـن بعيـد: «آلـو، أختـي العزيـزة، أريـد الخروج من هنـا وبـأيّ طريقـة، سأسـافر إلـى أي مـأوى فـي هـذا الكون بعيداً عن هذا البلد، كيف يمكنك مساعدتي في ذلك؟»

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عند الطاولة

مساء خفيض يلعق زجاج الحانة بنهم ويحاول التسلل إلى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الداخل شاهرا لونه الأسود.. أجد نفسي عند طاولة منعزلة في ركن قصيٍ، وحدي.. أعجب لشكل وجهي حال انعكاسه على النافذة، هل هذا الكهل المتجهم الوحيد هو أنا حقا؟.. كان بالإمكان أن يكون أمامي ومعي الآن وجه أليف باسم كما كان ذات يوم.

ذات مرة وفي المكان نفسه، وعند الطاولة نفسها، أخرجتْ فرح ورقة وقلما من حقيبتها وهمستْ مبتسمة، «اكتبْ ومضة شعرية عمَّا تحسّ به الآن».. لا أتذكر ماذا كتبتُ، غير أني أتذكر أنها أخذت الورقة وكتبتْ على صفحتها الأخرى شيئا جميلاً، نسيته اليوم أيضاَ، وأتذكر يومها كيف ضحكنا كثيراً وأكلنا سمكا مقلياً شهيا مع بطاطا مقلية.. حقا، أول العشَق أحلاه وللبدَايات دهشَة لذيذة في الذاكرة، لكَن ما يكون استثنائيا في البداية يصبح مألوفاً بعد حين، والمألوف يصبح عادياً والعادي لا يحّفّز العاطفة.

يعلو صوت مغنية على أفكاري، «طاولة وحيدة لشخص واحد، في غرفة مزدحمة وناصعة، وفي الوقت الذي تبدأ فيه الموسيقى، أشربُ نخب الذكريات في أجواء العتمة والكآبة..» تأتي صورة فتاتي في خاطري.

كأي امرأة، كانت تريد الاهتمام وأنا لا أجيده، لم أرع بذرة الحب الصغيرة لكي تنمو.. طالما كنت أصمتُ حائرا، كيف أفعل ذلك، وكيف أسمو إلى حالة الحب الذي تتوقعهً وتريده؟ لا أعلم لليوم.

يحيد نظري نحو امرأة فاتنة تجلس عند طاولة مجاورة تزّشّ حولها رذاذ أنوثة وتمطر فتنة وسنى.. أتأمل انحناءات جسد مصقول وصدرا عامرا وساقين مكتنزتين، يزيدهما إغراءً

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جوارب سوداء شفافَة تحتَ فستان أحمر قصير.. تذكرت مقطعا من أغنية لعبد الوهاب، «أفحَتمٌ عليّ إرسال دمع، كلمّا لاحً بارق في محياّ».. أرفع كأسي لها محييا، أنسى لبرهة ما كنت أفكر به قبل لحظات، غير أن صوتا ألفَته يعود إلى صندوق تفكيري، «الجمال يجعلنا ندير رؤوسَنا لا إراديا، أنت مصوّر فوتوغرافي محترف، وقد يبهرك الشكل لا الجَوهر، وتشغلك اللقطة وليس ما تحتها وما بداخلها.»

كنت أبوح لها بأمنيات ذكورية شهوانية قاسية، ما أغباني وإن كنت صادقا.. لا أذكر أني امتدحتها يوما، رغم أنها كانت تبذل جهدا لا بأسَ به في تجميل نفسها واختَيار ثياب أنيقة كلمّا تلقانيً.. كنت شحيحاً في التعبير عن عواطفي لها وإطرائها بكلمات تسعدها، لا بل كنت أشير إلى نواقصها دائماً؛ «ما هذا الذي بين حاجبيك وكأنه رقم 11، وذلك العطر الذي تضعينه يشبه رائحة الحضرة في كربلاء».. لم أجهد نفسي كي أسعدها! قرأت يوما بأن، «المرأة التي تحبك، تعاملك في البداية كما تتمنى أنً تعاملها أنت، ولو أسعدتها سترضيك قطعا، لكن ما إن تسيء معاملتها، ستنقلب الصورة، كلما تستاء منكً، يهبط مؤشر حبها لك».. صارت تنتقدني بالمثل، ولكن لا يمكن أن أتغير وعلى وجه الخصوص بهذا العمر.

تعلو ضحكات مرحة من جالسين على طاولة بعيدة، يغلفّها صوت عذب لمغنّية قديمة، «وكانت تلك الأيام يا أصدقائي».. سيزداد عدد رواد المقهى كلما أوغل المساء في ارتداء ظلامه وكلما غطّ الليل في نومه.. سيحضر المزيد من الناس والعشاق سوية، وأنت جالس هنا عند هذه الطاولة، تحتسي كأسك وحدك، مثل شاعر استعصت عليه قصيدة، تعتصرك الوحدة ويتقدم بك العمر، ولا تحسن سوى إضاعة الأيام بكل إخلاص،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وإطلاق غازات أفكارك وأمعائك.

يُقال أن لا تدخل في علاقة وأنت تشعر بالوحدة، لأنك ستختار الشيء الخطأ، ستكون مثل ذاك الذي يذهب للتسوق وهو جائع، وإن في حياتنا مصيبتين، أن نحب وأن نحيا بلا حب.. هل كانت رغبة تلك التي ربطتني بها؟ ربما كانت تريد مني حباً شاملاً آسراً يكون لها ملاذاً يحسّسها بالأمان والطمأنينة، ومع ذلك فلقد عجزت حتى عن منحها شعور الرضا عن نفسها.. أنىّ لي أن أتفاعل معها وماذا عليَ أن أفعل، لا علم لي، ومن لديه الطاقة لذلك؟ زال اليوم رونق الحب الذي أخذنا فكرة عنه في الصبا، لم يعد يغرينا بعد أن شاخ كيوبد بداخلنا وأصابه الملل.

«عليك يا عدنان أن تبذل جهدا استثنائيا من أجل الحفاظ على علاقتنا، أن تعمل ما في وًسعك كًي أكون سعيدة فأسعدك بالمثل.»

لماذا نبذل الجهد من أجل الحب، هل تتطلب علاقة بين رجل بامرأة كل ذلك العناء لدرجة تضطره إلى تغيير نمط حياته وتصرفاته وما جُبل عليه؟ ليس لدي أجوبة.

«تزهد المرأة بالدنيا وتكتفي بحنان من تحب، أنا أريد أن أعطيك كليّ، فلمَ تعطيني بعضك؟».. تتساءل دائماً.

ماذا يمكن أن يحدث لو بقيت وحدي؟ كثير منا وحده وكلنا سنرحل يوما ما.. عبثا أتخلى عن طبائعي وأغيّر من نفسي في سبيل أنً يبقى أحًد ما بجواري وأنا أموت.. غير أنها تلحّ:

«نحن كبرنا وآن أوان استمتاعنا بما تبقى لنا من عمر، احضن يدي بين يديك ودعني أضع ذراعي بين ذراعك،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الصحبة هي ما نأمله من علاقة كما علاقتنا، يكفي أن أسمع منك تفاصيل يومك وأحكي لك عن تفاصيل يومي .»

لم تتقبلني كما أنا ولم تترك لي مساحتي التي اعتدتها، لم تتعلم إتقان فن المسافات بينها وبين الآخرين حتى جاء قرارها الأخير، «قررت أن أكون معي، مع نفسي فقط، الأسى هو إهدار للوقت وللعمر.. ليس لدّي وقت لإعادة تأهيلك، لن تراني ثانية.»

وأنا عند الطاولة وحدي، لم يبق من عمر سيجارتي وعمري إلّا القليل.. كم من كؤوس النبيذ شربت لحد اللحظة، أم لا ينبغي عليّ عدّ السنوات وكؤوس النبيذ والعّشّاق، كما جاء في المثل الإيطالي؟.. لا تهرب أيها العبثي الكبير، أنت تحتاج إليها أكثر مما هي بحاجة إليك، تحتاج أن تكون معها وتكون معك في حيّز حيوي من هذا العالم المتعب، تحتاجها لتخلقا معا ديمومة حياة مريحة متوازنة.. ترى أما كان يمكن أن يكوّن إلّا الذي كان؟

ابتلعْ أساك أيها البائس، فالتقدم الوحيد الذي حققّته هو تقدمك في السن، وذلك الاخضرار الذي تعتقده لونا مزهرا، ما هو إلّا عفن، ستبقى عند هذه الطاولة وحيدا منتظرًا للاشيءً، ستظل في صمتك حتى تنبعث منك رائحةً قبر، سيموت ضوؤك ثم ستنطفئ.. ربما ستشمئز منك الطبيعة فتقرر إنهاءك، كم فاتتك الحياة وأنت تقيم في جثتك أيها الوحيد الأبله؟.. أنت تعلم جيدا يا عدنان، بأن الموت لا يخيفك بقدر ما تخيفك الوحدة والوهَن والفراغ الذي حولك وفي داخلك.. ها أنت بلا صاحب ولا أنيس، وحدك عند الطاولة، سيرفع كلب الزمن فخذه ويتبول على عشبة يأسك ومرارتك، لقد فقدت فرصة أن يكون شخص

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مـا بقربـك، حتـى ظلـكّ غـادرك، مـن سـيكترث بورقـة صـفراء تسقط من شـجرة قديمـة وقت الخريـف؟ مـا لـكَ سوى أن تـدُخل يديك في جيب وحدتك.. كان هذا اختيـارك، أن تسقط كمـا ظلـكّ وكما ضحكة باهتة من الفم مـع رمـاد سيجارتك، وتبقـى وحيداً عند هذه الطاولة.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

اختيار واحتيار

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أصص ورود جيرينيم بألوان مختلفة تتراصف على حافة عريضة لشرفة واسعة، تطل على شارع يتصدره مقهى صغير، يشبه صورة شرفة المقهى للرسام فان كوخ، يرتاده زبائن مزمنون، يعتادون في كل مساء على الجلوس فيه وشرب فناجين قهوة أو كاسات شاي مع الثرثرة .

عند سياج الشرفة التي فوق المقهى، أجلس وأتنصت إلى أحاديث الزبائن، أتصفح وجوهاً عديدة لجالسين وأتابع ظلالهم المضحكة، أراقب رجلاً بدينا لاهثاً على الدوام، يعيقه كرش متكور عن جلوس طبيعي، أتفحّص آخر طويلاً ونحيفاً يحرص على إخفاء صلعته بإرجاع شعرات طويلة من خلف رأسه إلى مقدمته، يشكو دائماً من تغير الطقس ومن الرياح.. أتطلع إلى آخر بنظارة طبية سميكة وبذقن بارزة وضحكة ناعمة لا تتناسب مع ضخامته، لا يكفّ عن التدخين ثم يروح في نوبة سعال، وثمة رجل آخر عنقه يشبه ديكاً رومياً كهلاً، يحرك رجله من تحت الطاولة بعصبية وباستمرار.

يصافح الجميع رجلاً آخر ضئيلاً منكمشا في بدلته.. لو تقدم لك هذا الرجل يا عواطف، ارفضيه من غَير تردد، يكفي أن أنفه كبير ويشبه ثمرة كمثرى، وأنه غائص في بدلته الواسعة وعليّ بذل جهد في البحث عنه في داخلها، لا يعجبني أبدا ذوقه في ما يرتديه، وفي الخصوص ذلك اللّفّاف الصوفي الطوَّيل، الذي بإمكانه أن يلف ثلاثة ممن يسيرون بجانبه لو يرميه حول رقبته.

لو قدّر لك أن تختاري، لكنت تختارين متقاعدا وسيما يملأ ثيابه، عضلاته، أو ما تبقى منها مفتولة إلى حد مقَّبول، يكَسو ساعديه شعر كثيف، يعتني بصبغة شعره كمشاهير السينما

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الكبار أيام الستينات.. اقبلي به بشرط أن لا يكون مغروراً وخاويا من رومانسية أخّاذة، سيخذلك لو كان لا يحفظ لحناً أو شعرًاً ولا يحمل زهراً أو علبة شيكولاتة على شكل قلب.

أنت تريدين رجلاً مثل ذلك الجالس بثقة عالية يا عواطف، يتحدث بلباقة بارعة تثير الإعجاب، يحرك يديه ويغيّر من قسمات وجهه لتتناسب مع ما يقول، يسرد أخباراً ويروي مشاهدات ويعرض معلومات كثيرة، ولكنك تعرفين هؤلاء المتثاقفين وأنصافهم، ابتلى العالم بازدواجيتهم، وهم لا يمارسون في حياتهم ما يقولونه، يظهرون جمالاً وكمالاً ويخفون قبحاً واختلالاً.. كلا، إنه ليس فارسك المناسب.

كم هو رصين ورائع ذاك الرجل الوحيد المنعزل! أراه يعتكف في ركن هادئ ويقرأ، ربما هو شاعر أو كاتب مشهور، وله كتب عديدة مثيرة للجدل لا الملل، ها هو فارس أحلامك، لكن حين تجلبين له القهوة إلى مكتبه، ربما لا يرفع نظره نحوك، بل يؤشر برأسه فقط وتفهمين: ضعيها على الطاولة واذهبي كي لا ينقطع حبل السرد، تهرعين خارج الغرفة حرصا على حبله، لكن حين ينقطع حبل الغسيل تكونين بمفردك لتعَالجي الأمر.

كم يشغلك التفكير في شريك الحياة طيلة عمر تجاوز أربعين عاما، وربما خمسين.. حسنا، قوليها بينك وبين نفسك يا عواطف، ستّين في الواقع.. لماذاً لا يوجد رجل يمتلك كل تلك الصفات التي تبتغين وتنتظرين من سنين طوال، هل ترجعين إلى صاحب البدلة الواسعة؟.. لا حيلة لديك، وافقي عليه لو تقدم بطلب يدك، لا تدعيه يفلت كما ضاعت منك فرص كثيرة، لا يحتاج إلى شيء سوى تشذيب شعر منخريه وأذنيه، وربما بدلة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تناسب حجمه ولفاف عنق جديد.

ـ مساؤك سعيد سيدتي

ألتفت صوب الصوت، ألمح ظلاً كبيرا مكوّرا لساكن الشقة الجديد.. أبادله التحية والابتسام وأفكرً مباشرًة في تأجيل النظر في مسألة رجل البدلة الواسعة.. ما أمر هذا الجار الجديد؟.. يبدو وجهه بدينا ورأسه كبيرا ومثبّتا على جسد من غير رقبة، ربما ينقصه قليلً من طول قامة وشَيء من الـ...

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المعرفة قوّة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لم يخطئ والدي حينما أطلق عليّ اسم «عارف» ولا أصدقائي الذين يسمّوني عارفشتاين، وذلك لأنني أعرف كل شيء ولا أخجل من المجاهرة بتلك الحقيقة.. ألبث قارئاً لكتب قديمة وحديثة غائصا في بحور المعرفة والعلوم، ومع ذلك لم أندم على سلوكي وًبصيرتي حتى بعدما حدث لي لاحقاً، يوم زرت أحد الأصدقاء في سكنه الجديد.

أخبره بأن لا حاجة لإرسال المعلومات حول كيفية الوصول إلى هناك، طالما أني أعتمد على نباهتي ومعرفتي، حتى أني رفضت الخوض معه في أي تفاصيل بخصوص طريقة الوصول ووسائل النقل، «هل أنت متأكد من أنك تعرف كيفية الوصول إلى العنوان؟»، أجيبه بزهو، «لا تخش شيئاً، أعرف طبعاً، أنا أكبر مستكشف في هذا البلد.»

كنت متأكدا بأني سأصل إلى العنوان المطلوب بسهولة نظرا لوجود شبكّة نقل جيدة تربطه بالمدينة، غير أن رحلتي أخذتً مني وقتا طويلاً نسبيا لم أكن أتوقعه، وأثناءها قمت بالسؤال عدة مرّاًت عن رقم الًباص واسم المنطقة التي يقف فيها، وبعد لأي وصلت إلى مبتغاي، وعند نزولي في الموقف الذي أشاروا علي به، لاحت أمام ناظري عمارات سكنية عديدة وحديثة، تختلف عن تلك التي في المدينة.. أرفع رأسي لأرى نهايتها وأعدّ طوابقها، ربما كانت سبعة عشر طابقا أو أكثر وأعُجب بفسحة خضراء تحيط بها ومرآب سياراتً متعدد المستويات تحت الأرض أسفل البناية.. تمضي فترة ليست بالقليلة حتى أجد العمارة المطلوبة، ولكني أجد أيضاً أن باقة ورد جلبتها قد تكسرت.

يفتح صديقي باب العمارة العالية مرحّبا ومبتسما، وأرى في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عينه نظرات تنمّ عن مباهاة مضمرة بسكّنه الجديَّد، فأنا أعرف فن تعابير الوجه جيدا.. يصحبني إلى مصعد فخم وحديث، يضغط على رقم ثم يضَّع قطعة ممغنطة ليصعد بنا إلى الطابق العاشر الذي يسكن فيه، ويسألني الصديق فيما لو كنت سمعت بهذا النظام الجديد للمصاعد، «نعم، بالطبع، ذلك شيء معروف، قرأت عنه حديثاً»، تلوح ابتسامة خبيثة على شفتيه.

يمكنني القول إني كليّ المعرفة، أشعر بكامل الثقة والشعور بالتفوق، أتحدث بطلاقة عن كل المواضيع السياسية والأدبية والعلمية والفنية ومن ضمنها أمور الصحة والتغذية، فيأخذنا الحديث الذي كنت أنا سيده بكل جدارة، طويلاً، رغم أن والدته المريضة كانت تقطعه بين الفينة والأخرى، ولكني انتبهت إلى أن صديقي أخذ ينظر إلى الساعة ويتثائب، فبات من الآمن ألّا ألبث أكثر من ذلك الوقت فقررت الانصراف.. ودّعني الصديق عند المصعد متسائلاً إن كنت أعرف إلى أي طابق أنزل، أهزّ رأسي في إشارة بأن لا يقلق وأبتسم، «هل تخشى على صديقك الموسوعي المعرفة؟ أعرف جيداً، لا تقلق.»

وربما لأني كنت على عجلة من أمري، فقد ضغطت على زر ظننته الطابق الأرضي، ليتضّح لي بأنه الطابق الذي تحته، وحين محاولتي الصعود إلى الطابق الأرضي، لم يسمح لي المصعد بذلك.. أدرك ساعتها بأن نظام البطاقة الممغنطة الذي أشار له صديقتي، لا يسمح لي بالصعود وإنما بالنزول فقط، وما كان ثمة وسيلة أخرى لي سوى النزول إلى المرآب، والبحث من هناك عن باب للخروج.

يبدو المكان موحشا ومظلما ليلاً، كلما أمشي لاستطلاع درب للخروج، ينفتح الَضوء قليًلاً ثم ينطفئ حفاظاً على

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الطاقة، فأدخل في ممر آخر طويل وملتو وأخرج من آخر، أسير بين السيارات ولا أرى مسلكا أو إشارة تدلّ على إشارة الخروج.. وما أن أعثر على سلم ألمحًه عبر ضوء هاتفي، حتى أنزله على أمل وجود مخرج من هناك.. ولسوء الطالع أجد طابقاً ثانيا من السيارات المصفوفة وليس هناك مخرج قريب منها.. لا يمَّكنني استطلاع هذا المكان الواسع في مثل هذه الظلمة، أنىّ لي أن أعرف؟

وبعد تجوالي بين السيارت المركونة من أجل البحث عن مخرج، أحسّست بتعب شديد وبرغبة في التبول.. لا أدري كم من الوقت مضى وأنا بين جالس لأستريح قليلاً وبين ماشٍ في الظلمة بعد سكون هاتفي.. في أول الأمر لم أشأ الاتصال بالصديق لنجدتي، إلّا أني فكرت بذلك فيما بعد، لكن الاستقبال في ذلك المكان كان معدوما.. أملت بمجيء أحد من الساكنين لركن سيارته أو أخذها عبثًا.. صرت أنادي، «هلو، أنا تائه هنا ولا أعرف كيف أخرج».. قلّت «لا أعرف »بصوت واطئ، لكن لم يسمعني أحد.. ازدادت معاناتي بشعور الألم في مثانتي والحاجة إلى تفريغ ما فيها، حاولت الرجوع إلى مكان المصعد ولكن يبدو أنّني ضللت الدرب تماماً.

في باكورة الصباح وبعد إغفاءة قصيرة لم أستطع السيطرة عليها، سمعت أحد الساكنين يقول لصديقه، «وجدت هذا الرجل الغريب نائماً قرب سيارتي، ورائحة بول طازج بقربه .»

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

النافذة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يتدلى من سقف صالة صغيرة مصباح خافت وباهت الإضاءة، تزدحم أركانها بوفرة أثاث تقليدي وعلى جدرانها رفوف مهملة، تعلوها تماثيل وتحف بأحجام صغيرة ومتوسطة وكبيرة، وطقم خزف صيني مطبوع عليه صورة لروميو وجوليت جالسين في جنينة، وكذلك زهريات فخارية وزجاجية، وثمة كتب بأغلفة سميكة وقديمة يعتليها غبار قديم.. لون بني قاتم موحّد يغمر الغرفة، ينسجم مع لون فقد هويته لسجادة عتيقة بنقوش ورسوم تقليدية.

ثمة نافذة صغيرة تتوسط الحائط تعلوها ستائر بنية اللون من طراز قديم، تنتهي بطيّات متتالية وبشكل فني باذخ التعقيد، وإلى جانب تلك النافذة كرسي قديم اعتادت سهام أن تجلس عليه وهي تمتطي عليه جواد ذكرياتها وترحل فوق صهوته بعيداً.

بين فينة وأخرى، تزيح سهام طرف الستارة وتمد بعنقها نحو النافذة وإلى ما وراءها، تنظر إلى شجرة رافقتها زمنا، تلتقط منها وريقات يفزعها الخريف فتخبئها في قارورة معً وريقات أخرى، غير أنها تغفل في كل ربيع عن متابعة إيناع الشجرة وتفتق أوائل وريقات خضراء لها مكتظةّ بريعان غصن وانفلات حياة.. في الطرف المقابل للشجرة توجد فسحة معزولة بسياج، توضع فيها حاويات قمامة، ويجاورها ركن فسيح مخصص لرمي أي أثاث مهمل لسكان العمارة.. ترقب سهام عمّال البلدية وهم ينقلون أكداس أشياء متروكة هناك إلى مركبة كبيرة، لاعنين أصحابها بكلمات بذيئة .

تأخذ الجريدة المحلية من جارة تطرق بابها كل صباح

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وتثرثر، «ماتت جارتنا العجوز في شقة رقم واحد، وهاهم يخلون شقتها ويرمون أثاثها العتيق العفن، يا لها من مسكينة! ما كانت تتنبأ بأن ما خلفته وراءها سيكون مصيره في القمامة، كم كانت حريصة على مقتنياتها!.»...

تغلق الباب لتسمع من ورائها صوت المرأة ذاتها، تعيد الكلام نفسه لجارة تقطن قبالتها.

ترجع سهام إلى مكانها الأثير قرب النافذة وتطل منها على ركن القمامة، ثمة كومة أثاث في ركن قريب من القمامة، ثمة كرسي بقماش مخملي ولون أرجواني، يشبه واحدا تجلس عليه الآن اشترته من محل يبيع أثاثا مستعملاً وضعتً على مسنديه قماشا مطرزا بورود حمراء، غًالباً ما تضع عليه يدين متعبتين لإراحتًهما...كًم تتواشج مع هذا المقعد الذي يظّلّ يرافقها طويلاً، كم شهد مسرآت مرتّ بها وخيبات عاتية لم تندمل لليوم، كثير من حياة قاسية لها قاطنة في ثناياه وفي خبايا ذاتها.

في ركن القمامة ذاك، ثمة طاولة مركونة تشبه طاولتها الخشبية التي تضع عليها كتباً تقرأها، حتى الورود الجافة تلك تشبه ورودها، وذلك السرير مقطع الأوصال يماثل سريرها، هل كانت صاحبته تنام عليه نوما مضطربا كما تنام هي، وهل فكرت بأنها ستموت عليه يوماً ماً وستكونً وحيدة؟

يحّلّ غسق حاشد بألوان متعكرة وتختفي الظلال.. تمُعن سهام النظر في انعكاس صورة جامدة ومشوشة لها على النافذة، تغمض عينيها نافرة من ظلالها، تقتحمها صور لموت لاذع، وغياب ملحْي ينزّ من جلد مشاعرها مع عرق جليدي، ينهال عليها تراب ونواح وهمهمات، كلما تحاول إبعاد ما

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يتساقط عليها، يصاب جسدها ويداها بخدر عاجز، وحين تحاول فتح شفتيها بصرخة، يتجمد صوتها وتتحول فجأة إلى ورقة يابسة ترقد إلى جوار أوراق كثيرة أخرى في قعر قارورة ضخمة، وتشعر إثر ذلك بانحسار هواء وباختناق.

حين تصحو من غفوتها القصيرة فزعة، يقع نظرها على لوحة معلقة على جدار أمامها، منظر غروب بألوان زيتية داكنة وراعٍ متعب يؤوب بماشية ناعسة إلى منزل ريفي.. تنتبه اليها وتلمحها بعمق حزين وتسهم لبرهة.. تزيح طرف الستارة عن نافذتها بحزم وتتأمل.. تخطر في بالها فكرة تقوم بتنفيذها بخفة وحيوية لم تحس بهما مسبقاً.

بعد أن يرمي كيس قمامة في الحاوية، يقف صبي تحت نافذة سهام، متطلعاً إلى كوم أثاث متروك في الركن المهمل.. يقلبّ بيديه تماثيل وتحفا بأحجام صغيرة ومتوسطة وكبيرة، وطقم خزف صيني مطبوًعا عليه صورة لروميو وجوليت وكذلك زهريات فخارية وزجاجًية مصنّعة، وثمة كتب بأغلفة سميكة وقديمة، ستارة بنية اللون من طراز قديم، سجادة مهترئة، ورود مجففة، ولوحة مغيب فيها راع متعب مع ماشيته آيبين إلى منزلهم الريفي.

يرفع الصبي نظره إلى الأعلى.. يرى نافذة بدون ستارة، تقف عندها سهام وهي تتطلع إلى أثاث مركون في ركن القمامة بزهو وتحدٍ، تخفي ابتسامة خفيفة قابلة أن تتحول إلى ضحكة مكتومة.. ترمي من فتحة النافذة وريقات خريفية ميتة تفرغها من قارورة زجاجية.. تحدق خارج النافذة لتبصر شجرة جيّاشة باخضرار وبراعم غرةّ، تبعث أنفاس حياة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جديدة لربيع جديد.. تبتسم ثانية ابتسامة واسعة تتحول إلى ضحكة، لأنها أدركت اليوم بأن أفضل ما نفعله هو الاستهزاء بالحياة وبما تعلقنا به من ذكريات ونحن على قيدها، وقبل أن يلعننا أحد.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

محْنة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بعد كل هذه الضوضاء واللغط وابتسامات التهكم، وبعد مغادرة رجال الإطفاء، علاوة على مشاعر متلاطمة تمور في داخلها من أمثال خجل وخزي وإحراج، خلت إلى نفسها في غرفتها ورائحة الدخان والحريق ما تبرح تخترق أنفها .

قبل ثلاث ساعات كانت مآثر تجلس حائرة وفي حجرها علبة الكرتون ذاتها كمن بين يديه صندوق في داخله متفجرات، تضغط بأصابعها على محتوياتها وتتمنى أن تضفي عليها لمسة سحرية كي تختفي ولا يظهر لها أثر، كانت تلوم نفسها وتتمنى لو أنها لم تصغ إلى كلام صديقتها وتجاريها.

«أنا أمتعّ نفسي بنفسي، لا أنتظر من رجل أن يفعل ذلك، أحيانا أكتب رسالة عشق إلى نفسي وأبعثها على عنواني، لم يبق ليَ غير الخيال يرمّم نفسي اليائسة من الرجال، ليكن بعلمِك إن الرجل الذي يرُضي ويريح المرأة غير موجود على سطح هذا الكوكب.»

يأتي في بالها حديث دار في إحدى الأمسيات حول العلاقات الزوجية.. تنفي كل الحاضرات شعورهن بأي نشوة في علاقات الزواج، ويعزين السبب إلى عدم تفهم الأزواج لحاجاتهن في الفراش، «يجهلون بأن أهم عضو جنسي هو الدماغ.. يحسنون فضّ بكارة المرأة الجسدية، غير أنهم ينكرون بكارتها العاطفية التي عليهم فضّها قبل ذلك.. بالمناسبة، هل جربتنّ الاورغازم، أي بلوغ الذروة في النشوة؟»

تفغر الحاضرات أفواههن، يهززنّ رؤوسهن نافيات، تتحسر إحداهن وتحكي ثانية بأنها ذات ليلة ارتدت ثوب نوم مغرياً

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وانحنت أمام الشاشة لتنظيف الغبار، بقصد إغواء زوجها، فما كان منه إلّا أن طلب منها أن تبتعد كي لا تحول بينه وبين مشاهدة مباراة لكرة القدم، ورجاها بالوقت نفسه أن تطفئ الشموع لأنها خنقته.. تصمت مآثر وهي تتذكر ليلة دخلتها، فمنذ ذلك اليوم حتى طلاقها من زوجها، لم تشعر بميل إلى أي ذكر، وكأنها كبحت جماح رغبتها ورضيت بما هي عليه من رهبنة .

كانت كلما تمرّ بالقرب من محل فيكتوريا سيكرت أو لاسانزا، تُمنّي نفسها بتجريب واقتناء ملابس نوم شفافة مغرية تفصح عن أنوثة مكتومة في داخلها، غير أنها كانت تخشى من ردود فعل زوجها الساخرة أو الغاضبة، وها هي اليوم وحيدة تتحسر على ما فاتها من شباب ومغامرات وهناءة كان من الممكن أن تتمتع بها.

في يوم لا تنساه، تأتي صديقتها لتخرج المارد من أعماق نفسها وتشجعها على استعمال ذلك الشيء، «دعينا نجربه، اشتريت اثنين، واحد لي والآخر لك»، تهزّ رأسها موافقة ويزداد وجيف قلبها وكأنها مُقدمة على جريمة، وكما لو كانت تمارس فعل خيانة.. تحمل تلك الكرتونة المريبة إلى البيت في كيس محكم الإغلاق.

في المساء، وبعد أن تتأكد من أن ولديها ليسا في الدار، تغلق مآثر باب غرفتها وتخرجها من الخزانة.. تتأملها ويضطرب في رأسها إحساس بالخوف ممزوج بالقرف قبل فتحها.. يقشعر بدنها لمّا ترى ما في داخل الكيس وتستنكر حالها، ساعتها لم تشعر بأدنى احترام لنفسها.. كيف يمكن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لقطعة من البلاستيك أن تمنحها السعادة والنشوة، أين الحب الذي جُبلت عليه كما بنات جنسها، أين المشاركة الوجدانية، وأين الجانب الإنساني في قضية ميّزتها الطبيعة بها؟

تنتابها فجأة أحاسيس غضب وتأنيب ضمير مع شعور بعدم الارتياح.، وتقرر فجأة التخلص مما في يدها بأسرع وقت، وفي الوقت نفسه تتمنى لو كانت رجلاً، لا يواتيها ذلك الشعور بالحياء لما تقوم به من أفعال تتعلق بذلك الأمر، ترتاد بيوت الدعارة وتقتني دمى وألعابا حسيّة، ولا تخشى من الكتابة عن مغامرات مع الرجال ومفاخَرات لها بشرب خمور ونشر صور رجال شبه عراة في وسائل التواصل الاجتماعي، وحين تؤلف كتابا، يكون كل شيء فيه متاحا ومقبولاً نفسياً واجتماعياً ومن غَير تابوهات.. مرحى للمجتَّمع الذكوري.. لكن هي اليوم امرأة تحاول التخلص من تلك المصيبة التي بين يديها.

تحمل مآثر علبة الكرتون المشبوهة إلى صندوق القمامة عند باب بيتها، غير أنها تتوقف حينما تفكر فيما لو أراد ولداها رمي القمامة بنفسيهما واكتشفا ما في «العلبة».. تطوف عيناها في الشارع وترتئي أن ترمي ما في يدها في قمامة الجيران، لكنها تعود وتستثني تلك الفكرة، فمن المحتمل أن يراها واحد منهم وهي تقوم بتلك الجريمة المخجلة، لتصبح موضع سخرية في الحي.

تركب مآثر السيارة وتضع العلبة تحت قدميها، ولما تتوقف عند سوبر ماركت قريب، تحملها وتتظاهر بأنها تختار نوعاً من الفاكهة، وبعد أن تتطلع يمينا وشمالاً، تترك العلبة على الرف وتنصرف بعجالة، وجراء ارتبَاكها، تنسى حقيبتها هناك،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ولما تعود للبحث عنها، يسلمّها حارس أمن المحل الحقيبة ومعها الكرتونة، تلاحظ ابتسامة خفيفة على شفتيه أو يتهيأ لها ذلك.. ماذا ستفعل بتلك البلوى وكيف ستتخلص منها؟.. لابدّ من إخفائها كليّاً وإلى الأبد.

ها هي أخيرا تتوصل إلى فكرة حاسمة لإخفاء تلك المصيبة تماماً، ولنً يصبح ذلك ممكناً إلّا بالحرق.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إنْ يسأل عنه أحد

منشورات «ألف باء AlfYaa»

حين دخل رجال الشرطة إلى داره، وجدوه ميتا.. كتبوا في التقرير الطبي، «مات الشخص المدعو منير شاكر قبل أسبوعين بسبب الجفاف وعدم دخول الماء والطعام إلى جوفه»، نقلوه خفيفا إلى مقبرة مهجورة، وبعد أن يئسوا من التعرف على أهلهً أو أقاربه أو أحد من أصدقائه، تركوا على قبره رقما ليدل على هويته، إن يسأل عنه أحد يوماً ما.. لملم أحدهم أوًراقه المبعثرة المكتوبة بخط يده وسلمّها إلى المحقق الجنائي الذي قام بقراءتها بشكل سريع.

«كما أغلب الليالي، أحاول جاهدا كي لا أنام حتى لا تنهشني الكوابيس.. ها أنذا أمكث فيً هذه الدار القذرة، أطرق الباب عليّ من الداخل لأن لا أحد يطرقها عليّ من الخارج، وأعيش في مملكة صغيرة حدودها كتفان، لا أختلط بالعالم الخارجي الممتلئإنصعت بالوحوش، والذين بدأت حكايتي معهم يوم شعرت بألم شديد في بطني وآلام أخرى في كل جسمي، جعلتني أجد صعوبة في المشي.. كنت أعرف بأنني مصاب بسرطان خطير ونزف في القولون، اضطراني للذهاب إلى المستشفى، لكن موظف الاستعلامات نظر إليّ باستعلاء رغم أن عينيه الزرقاوين كانتا تشيان بالبلاهة، وبعد النظر إليّ مليا، أمرني بنبرة توعدية بالخروج من المكان.. رحت أصرخ بصًوت عالٍ وألعنهم بلغتهم حتى جاء الموظف المسؤول حاملاً هاتفاً خلوياً ومرددا كلمات سرية، «القادسية اثنان، القادسية اثنان، حوّل»، وعلىً حين غرةّ، ظهر الطبيب من باب سريّ وعيناه تطلقان شررا، صرخ بوجهي منوّهاً بأن علاجي ليس هنا، «هيا اخرج».. كًان بدون شك يعرفني ويعرف حالتي المرضية من خلال شاشة كومبيوتر سريةّ موضوعة في سقف المستشفى، انصعت لأوامره وهممت بالخروج ناقما، غير أنه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نادى عليّ وأعطاني علبة صغيرة، «خذ هذا الدوَّاء ولا تأتِ إلى هنا مرة ثانية».. أدركت أنه نفس الدواء المسموم الذي تناولته سابقا والذي سببّ لي نزفاً وإسهالاً شديدين، وكان الاتفاق واضحا بيَّنه وبين الصيدلاني، كما حدث في المرّة الماضية عندما حجَّزوني في المستشفى وأرغموني على تناول الدواء السام، حتى أني عزمت على الصيام عن الطعام والشراب لكن طبيبة أجنبية زرقتني بحقنة مضادة للتسمم، وكانت يداها ترتجفان من الخوف خشية أن يطردوها من عملها.

بعد شفائي، أبلغت الشرطة المحلية عما جرى لي، فجاءت عدة لجان إلى الدار مدّعين أنهم مفتشون ومعهم شرطية بزي مدني، قاموا بزرع كاميرات في أرجاء البيت وقامت المرأة بأخذ عينة من دمي، وفي نفس الوقت، حقنتني بإبرة فيها فيروس الإيدز.. بعد أيام سقط شعري وصار عندي التهاب وحكة في الجسم ثم ارتفع عندي السكر والضغط، لدرجة أني صرت أجد صعوبة في نزول السلم متجنباً ما في المصعد الكهربائي من كاميرات مراقبة خصيصا لي.. ولا غرابة في ذلك فهم يتلصصون عليّ حتى في الحمامً، فقد أثبتوا أنهم بلا قيم وتلك الديمقراطية التي يتشدقون بها ما هي إلّا خدعة ورياء.. علمتُ لاحقا بأنهم متعاونون مع مخابرات النظام في العراق، يحقنون ألمعلبات والفاكهة التي أتناولها بالسم، ولكي يتملصّوا من تلك التهمة، ادّعوا بأنني أتصل بالمخابرات والجهاز الأمني لبلدي، كل ذلك لأني شديد السمرة وهم بيض البشرة حُمر الوجوه.

آلمني ما جرى لعائلتي في العراق بسببهم، فلقد قاموا بدهس ابن أختي، وهو رسّام معروف، وقتلوا عمي بمسدس كاتم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

للصوت، أما أبناء عمتي فقد سمموهم جميعاً.. لا توجد حقائق اليوم في هذا العالم، فمن يملك الثروة والسلطة هو الذي يصنع الحقيقة والتاريخ والجغرافية.. لا ريب أنهم يتحكمون في الميديا ويعلمونا بما يريدون لنا سماعه، يغسلون أدمغتنا حتى لا نتمكن من معرفة الحقيقة.. كلنا خراف يعدّونها للذبح إن لم نسر مع القطيع ونطيع.. فقدت الأيمان بكل شيء وصار صوتي أعرج.

أنا لست غبياً، فظلامي ليس كما ليلكم، إنه في داخلي.. عرفت بأن المخابرات العراقية اتصلت بي على صفحة وهمية وباسم مستعار في الفيسبوك، أرسلتُ لهم رسائل متوعدة وقاسية لدرجة أنهم اعتذروا مني ومن عائلتي، ولكن لما أردت السفر إلى بلدي وبلا رجعة، قاموا بسرقة جواز سفري وحقائبي، ووجدت ملابسي منثورة قرب المطار، عندها رجعت ماشيا نحو البيت وحينما وصلت إلى هناك، لم أتمكن من فتح الَباب فاضطررت إلى كسره، وأسوأ مافي الأمر أني رأيت مادة بيضاء مرشوشة في كافة أنحاء الدار، وعرفت فيما بعد أنها مادة سامة تسبب حكة في الجلد وتورماً.. نمت في الحديقة، وحينما شاهدني الجيران صباحا، قدموا لي يد المساعدة كما ادّعوا، غير أنهم قاموا بسرقةً كل ما وجدوه أمامهم وكسّروا وخرّبوا الأجهزة الكهربائية كالثلاجة والتلفزيون، ومن الغريب أن الشرطة كانت تنظر إليهم بعين الرضا في حين كانوا يمضغون اللبان ويبتسمون.. كلهم عملاء، جميعهم شاركوا في القادسية وكل الحروب ولم يدخلوا سجون النظام مثلي، كلهم عنصريون جبناء.. سأصلم آذانكم لتكون مثل أذني، أنتم تعرفونني جيدا أنا المعتزل بالدنيا الشرق أوسطي، ابن المكتفي من هذه الحَياة، أنا عود قصب يابس لا ينمو في ظلّة عشب، أنا موت قديم.. اصبروا عليّ وسترون

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ماذا سأفعل بأمهاتكم.. سئمت حقا من مشاهد الدم وقطع الشاش والسجون وساحات الحروبً والأطراف المقطوعة.. هذا العالم مروّع، كلّه غش ونفاق وأفضل ما تفعله هو السخرية منه والتبول عليه.. منذ الخليقة الأولى والتاريخ البشري يعيد أحداثه نفسها، ناس تشقى ونخبة قليلة تنال ما تريد، ناس طيبون مغفلون مذعنون لا يجدون ما يستهلكونه، وناس بغيضة يفيض ما لديها عن حاجاتها.. اللعنة على كل شيء، ضجرت من سماع أصوات المرضى والمعذبين والرصاص والقنابل والطائرات والانفجارات وضحكات الأطباء ودعايات الرأسماليين وجشعهم ووسائل أخبارهم النتنة.. أيها الأوغاد، سأخرسكم جميعاً إلى الأبد، سأضرب عن الطعام لأموت حتى أرتاح منكم.»

طوى المحقق أوراق الشخص الغريب المنتحر بلامبالاة، وأطلعّ ببرود على ورقة الطبيب النفسي، «المدعو منير شاكر، لاجئ من العراق مصاب بتهيؤات وهلاوس، أشرفنا على حالته النفسية منذ عام 1991، ليس له أقرباء أو أصدقاء هنا، فقد عاش منعزلاً طوال حياته.. أرفق هذا التقرير لكم ولذوي المذكور إن وجدوا وإن يسأل عنه أحد .»

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نُدَب أديب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تحسم أمر النقاش بحكمتها المعتادة، «دعكّن من كل تلك التقولات، ينبغي أن نزوره، ألا تكفي دوافع مرضه للقيام بطقس إنساني محمود؟».. نوافق، ولكن على مضض، ونتفق على تحديد يوم لزيارة الكاتب المريض، بل ونتعهد بتجهيز أطباق طعام تعبيراً عن مؤازرتنا له.

يطل علينا السيد خالد مرحّبا.. نسمع بجلاء صوت موسيقى كلاسيكية من جهاز كومبيوتر يمَلأ المكان.. يبدو أنه قد بذل جهدا في ترتيب داره الصغيرة وإخفاء مظاهر العزوبية والفوضَى.. يطمئننا على صحته ونبادر بتحضير الشاي مع أصناف الحلوى التي صنعناها خصيصاً له واحتفاء بسلامته.

ـ كيف حالك اليوم ومتى أصبت بالانتكاسة الصحية؟

يحدد لمرضه تاريخا ثقافياً، بين مؤلفه الثاني ومؤلفه الثالث، منوّها بأن الشدّ الَنفسي والعصبي والتوتر أهم أسباب المرض، «ما مَن قلق عليّ طالما القرآء يتهافتون على كتبي، سأريكم التعليقات عليها في الفيس بوك، لكن التعامل مع دور النشر مرهق، رغم أنهم يدفعون لي لقاء النشر عندهم، وكما تعرفن، فإنّ خلفيتي الثقافية لها امتدادات عميقة متجذرة في الزمن و.»..

أقاطعه بأسئلة عفوية عن كاتب مشهور، يجيبني باستعلاء بأن ذلك الشخص فعلاً فاز بجائزة، لكن روايته مهزلة، وإنه لا يكتب، بل يخربش، وما جعله يفوز هو علاقاته الواسعة مع الوسط الثقافي وجلسات السكر.. يرمقني بعينيين ضيقتين، ينظر إلى السقف ويتكلم، «أما بالنسبة لحضرتك فأنت تكتبين بصورة جيدة، لكن لديك أخطاء عديدة، انتبهي لاحقاً إلى موضوع الممنوع من الصرف حينما تكتبين وتأنيّ قبل أن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تنشري.. ماذا؟ كيف لا توجد رواية سيئة، بالتأكيد توجد.. من هي تلك الكاتبة الكبيرة؟ يبدو أنك لم تقرئي لها جيدا، كل رواياتها سخيفة وغير مشوقة، وتكاد تكون مثل ندب البَلابل اليتيمة.»

تهمس إحدى الصديقات، «كيف تكون ندب البلابل، هل تعرفن؟ وكيف اكتشف أن هذه البلابل يتيمة؟ وهل هي يتيمة الأبوين أم.....».. تقاطعها أخرى بهمس، «ما أدراك أنت بندب البلابل يا امرأة غير مثقفة؟ إنها إحالات دلالية يجهلها أمثالك من النساء البليدات.»

يأخذ مضيفنا بناصية الحديث لينتقل إلى موضوع آخر، «جاءت إلى داري امرأة شابة جميلة متوسلة بأن أتزوجها، رغم أنها تصغرني بأكثر من عشرين عاما، كيف لي أن أقبل عرضها؟ أما شابة أخرى من بلاد عربية، فقَّد حاولت الانتحار بسببي ومن أجلي، أسمحُ بزيارتها لي من حين لآخر، كأصدقاء ليس إلّا، ولسبب بسيط وهو أنني أرثي لحالها.. ما تزال الأخرى تراسلني رغم زواجها، قلت لها فيما مضى، كلا، كلا، لا أريد الارتباط بفتاة يانعة وجميلة وصغيرة مثلك، لكنها أقسمت بأنها لن تعشق غيري.»

نتبادل النظرات الحيرى وهو مسترسل بحديثه يغمض عينيه حينا ويتطلع نحو سقف الغرفة حينا آخر، نرمق وجهاً منتفخاً كأنهً طالع توا من علبة خميرة.. قدً يفكّر بأن سبب زيارتنا له بدافع الإعجًاب بمواهبه الكتابية أو ربما بفحولة رجولية، وربما يظن بأن حالنا، كنساء «وحيدات» يؤهلنا لملاحقته والجري وراءه.. أكاد أسمع ما يفكّر به، «ليس لدى تلك النسوة بالتأكيد غير أشغال المنزل والثرثرة والموضة، كيف يمكنهن

منشورات «ألف باء AlfYaa»

قراءة وإدراك ما أكتب؟»، نستغرب من حديثه الذي حجب فيه عنا صوت الصديق والإنسان، أما كان من الأجدر به أن يسأل عنا كما جئنا للسؤال عنه؟

نحسّ ببرودة الجو عند خروجنا، وبهدوء في الرأس بعد تلك الموسيقى **الكلاسيكية** العالية، وبينما كنّا نتجه نحو محطة قطارات الأنفاق، تلحّ صديقتنا بالسؤال، «ما زلت لا أفهم كيف تكون ندُب **البلابل** اليتيمة، وكيف عرف الكاتب بأنها يتيمة، هل تعرفن؟»، نخفي ابتساماتنا تحت شالاتنا اتقاء البرد وندخل إلى محطة الأنفاق.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

معرض حلمه

(إلى لطيف العاني)

منشورات «ألف باء AlfYaa»

دعاني الفضول إلى زيارة معرض للصور الفوتوغرافية بعد مقالات قيّمة نشرت عنه في صحف معروفة.. تصدرت القاعة أول صورة لملك حاسر الرأس، مرتديا بزةّ عسكرية عليها كثير من الأوسمة العسكرية، مبتسما بوقارً، ابتسامة تخبئ وراءها طفولة ضاجّة وبراءة غضة.. رحًت استخدم الجانب الرقيق لخيالي من أجل تدجين التاريخ السياسي لبلدنا.

سيجلس على مائدة فطور عامرة بجانب بعض من الأقرباء حينما يسمع جلبة خارج قصر الرحاب، يستنشق جرعة من دواء الربو، قبل أن يدخل عليه رئيس الحرس الملكي ليخبره بأن جمعاً من العسكريين يلحوّن في طلب مقابلته:

ـ انتهى وقت حكمك يا جلالة الملك، نريدك أن تترك البلد أنت وعائلتك اليوم قبل الغد، ستغادره معززاً مكرمّاً.

يوافق على طلبهم ويسلمّهم كل ما في خزنته الملوكية من مشاريع ومخططات لإعمار البلد، ويضع بين أيديهم مالية المملكة، ثم يسافر ملتحقا بخطيبته فاضلة في لندن لإتمام إجراءات حفل الزواج في إسطنبول.

أتوجه إلى القاعة الثانية التي تتوسطها صورة كبيرة لجنرال رافعا كفه نحو رأسه في وضع أداء لتحية عسكرية، تميل هيأته وًبزته الخاكية إلى بساطة أكثر منها إلى مظاهر بذخ وفخامة.

في وزارة الدفاع، يخلع بدلته العسكرية ويرتدي بيجامة بيضاء مخططة بخطوط سوداء، يحسّ بالعطش فلا يقرب الماء لأنه صائم، يستلقي على فراش بسيط في غرفته ويتهيأ لينام،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لكن الحارس يوقظه بحذر ورهبة، «سيدي، أخوك على الهاتف»

ـ لا تقلق يا حامد، سينتهي كل شيء بسلام، أخبر نجية وأمينة بأن تجهزّا لي الغرفة لأقضي الليلة فيها، وأن تحضّرا لي حقيبة السفر، ستكون سفرتي طويلة هذه المرة.

يدلف إلى الوزارة بعض القادة العسكريين، يعرف الجنرال أغلبهم ويسلمّهم مشاريع ومخططات إعمار البلد، ووثائق سرية عن العلاقات الخارجية وكل ما في عهدته من أوراق رسمية، يتبادلون معه التحايا العسكرية وينصرفون.. يتلفت فيما حوله برهة ثم يغادر وزارة الدفاع هو الآخر بهدوء.

تستهل القاعة الثالثة صورة لأخوين حكما البلد، واحداً بعد الآخر، اشتهرا بإعماره وقطع كل علاقات مع أي أجنبي كما أوصاهما الجنرال.. ينتعش اقتصاد البلد آنذاك ويزداد جيشها قوة مدافعا عن شعب ومنجزات.. يتقدم البلد ويتطور التعليم، وتزهو الحًياة الاجتماعية والثقافية وترتقي.

يلتقي الأخ الحاكم شخصاً له باع في السياسة، يناشده بالتخلي عن الحكم، يزعم أن بمُكنته التسريع بتطوير البلد وأن دوره قد حان لخدمة البلد، يستوعب الحاكم الأمر ويسلمّه القيادة ومقاليد السلطة بسلام، يوصيه خيرا بالبلد والشعب وذلك قبل أن يستقل طائرة تقلهّ إلى بلد قريًب.

بعد ممر طويل يأخذ شكل نصف دائرة، أبصر صورة لقائد وخلفه مساعده، ثم صورة أخرى لمساعده بمفرده، تهيمن صوره على كافة أرجاء القاعة، تزدهر الأحوال في فترة حكمه وتتطور علاقاته مع الخارج على أساس السيادة، تسود العدالة ويترفه الشعب، تأخذ تجارة النفط مكانة أولى في الاقتصاد

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

علاوة على موارد إنتاجية عديدة، وتتوحد قوى الشعب متكاتفة ضد كل من يسعى لتخريب ما حقّقوه من ازدهار وإنماء، يرتقي التعليم وتنهض السياحة فتدرّ رافدا مهما على اقتصاد البلد، حتى أن فترة خدمة الحاكم الشاب لبَلده تَّطول بناء على رغبات الشعب.. ويحين الوقت الذي يأتي إليه بعض الأشخاص راجين منه أن يرتاح من خدمة بلاده الشاقة:

ـ يا سيدنا ويا مولانا، سنواصل المسيرة من بعدك ولا نحيد عن مبادئ العدالة والنهوض بهذا البلد وبشعبه.

سرعان ما يستجيب لهم، فيرحل إلى جزيرة اختارها بنفسه، ليقضي بقية أيامه في رفاه وسلام، مطمئناً على الشعب ورفاهيته.

في زاوية قصية من القاعة أصادف قوسا من الطراز الإسلامي، يودي إلى قاعة فيها صور لأفراد متديِّنين يرتدون عمائم وملابس مدنية، وتوحي ملامحهم بالتقوى والإيمان بخالق يأمرهم بأن يحكموا بالعدل والإنصاف فيطيعونه.. يخدمون بلدهم وشعبهم بإخلاص وتفان دونما تبعية لأي مرجعية خارجية أو لفكر إلغائي إقصائي، يصونون كرامة المواطنين ويسعون إلى رفاهيتهم، ترتقي في زمنهم سمعة تلك البقعة الموغلة في الحضارة وتغدو أكثر سطوعاً وازدهاراً بين كل دول العالم.

هكذا تجري الأمور في البلاد الجميلة، بلد السياسيين الوطنيين الذين يخدمون شعبهم بإخلاص وكفاءة، مؤثرين مصالحه على مصالحهم الذاتية.. يكرّس رجال الدين وقتهم لعمل الخير، ويحرصون على تنقية التعاليم الدينية من شوائب تحط من قيمة الإنسان ولا تدعو إلى المحبة وتقبّل الفكر الآخر،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فلا يتدخلون في سياسة البلد بل يكتفون بالوعظ، أما رجال العلم فيدفعون عجلة التطور للأمام، ومثلهم رجال التربية والتعليم والأدباء والفنانون، وكل من يسكن في تلك البقعة المشرقّة العريقة من الأرض.

تنتهي خطاي في قاعة صغيرة، على جدارها صورة واحدة كبيرة، يبتسم فيها لطيف العاني ابتسامة واسعة صافية قبل أن يرحل راضياً، وفي باله أن لا يوجد مكان للصراعات الدموية في هذا البلد المتأصّل في الحضارات، لا مجال لخلافات جراء اختلافات، ثمة وعي راسخ وفكر حضاري لا يسمحان بالتناحر.. أصفّق بحرارة لمخيلتي ولحلم صاحب المعرض .

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نِعْمة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يفتح باب الحديقة في تلك الصبيحة الربيعية الصافية ويدخل إلى الدار، طويلاً ونحيفا مثل رمح، يمشي ويبدو ظلّة أطول منه بكثير، يردد على الدَّوام: «نعمة، نعمة، نعمة، »أسعى لمحادثته عندما أقدّم الشاي له، يمسك «بالإستكان »بطريقة متفردة، يمدّ خنصره الأيمن باستقامة، ويحركّ ببقية أصابعه السكّر بواسطة الملعقة، ثم يسكب السائل الساخن في الصحن الصغير، ينفث عليه أنفاسه ليبرد ثم يحتسيه بتلذذ، يرطبّ به أحيانا «صمّونة حجرية» يدفعها نحو فمه بخّفّة، بعد أن يعتذر بأَنفَة عن تناول كعك الشوكولاتة، ظناً منه أنه كعك محروق.. وحالما ينتهي من فطوره، ينهض بهمّة، طويلا ونحيفا كرمح وهو يردد، نعمة، نعمة، نعمة.. يشرع بتنظيف غرفَ البيت والمغاسل، يرمي القمامة، يسقي الحديقة، يرش أشجارها من غبار عنيد عالق، ولو أطلب منه شراء ما يلزمنا من خضار أو خبز، يهّم بخفة، طويلا ونحيفاً مثل رمح، يقبّل النقود ويضع كفّ يده على جبينه، مردّداً كلمات تلازمه بين كل قبلة وأخرى: نعمة.. نعمة.. نعمة فضيلة من الله..

عرفه سكان الحي منذ زمن بـ «حمندي»، لم يكترثوا باسمه الحقيقي ولا بالسؤال عن أصله وفصله، اعتادوا عليه هكذا، وكأنه جاء إلى الدنيا بهذه الصورة «الحمندية».. وأكثر ما يعرفون عنه، هو أنه عمل في معامل الطابوق حينما كان يافعا، ولما دقتّ طبول الحرب مع إيران، جنّدوه، دربوّه على السلاَّحً سريعاً، أخذوه إلى الجبهة ثم قالوا له بصرامة وبحزم، «ارم العدو».. أراد أن يسألهم من هو العدو، وإذا كان إنساناً مثلنا، لماذا نقتله ونحن لا نعرفه.. تردد لمّا نظروا إليه شزراً قائلين، «هيا ارم، وإلّا نرميك نحن.»

ما عرفه الناس عنه أيضا، هو إصابته بمسّ يذهب بعقله

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أحيانـا، نجـم عـن فتـرة تعـذيَـب قضـاها فـي المعـتقلات التـي لا يتوَقـف حديثـه عنهـا، «كـان الأسـرى ثلاثـة أنـواع، جماعـة صدّاميّون، هؤلاء يعذبونهم كل يوم، وجماعة صارت تحارب مـع إيـران، يأخـذونهم إلـى جبهـات قتـال ضـد العـراق فـلا يعودون.. أما أنـا، فكنت من الجماعـة الثالثـة، لا مع صدام ولا مع إيران، بقينا أسرى حرب، يطعموننا ملعقتي عدس ونصف رغيف خبز.. نعمة، نعمة، نعمة.»

يرسل في طلبه الكبار والصغار من أصحاب الدور في الحي.. في الصيف، ينظف غبارا نافذا للبيوت وإلى الملابس، ويزيله عن سجادات إيرانية كبِّيرة، يَطويها ويبرمها بمهارة بعد أن يضع كرات النفتالين فيها ثم يركنها في الدور العلوي.. وفي الشتاء يشتري النفط الأبيض، يملأ مدافئ تقي من رطوبة وبرد عراقي لا يرحم، ومن يحتاج إلى سيارة تنقله إلى مكان ما، يتصدر حمندي مقعدها الأمامي، خشية على الراكب من اختطاف أو خديعة.. أسمع من الجيران بأنه يوم جاء ليحصل على راتب تقاعدي وعلى قطعة أرض للأسرى بعد سقوط النظام وفك أسره، دخلت دبابات أمريكا وجيوشها البلد، وذهب الموظفون إلى دورهم فذهبت معهم كل ملّفّات الأسرى وحقوقهم وآمالهم في استحقاقات مواطنة ووطن، واليوم يحرمه نظام وقانون من حق في راتب تقاعدي معقول، لأنه ساهم في حرب «ظالمة» مع الجارة إيران.

يحلو لي أن أمزح معه فأسأله عن موقفه من آخر الأحداث السياسية فيجيب، «عمّي، نحن لا نقف، ما عدنا موقف، نمشي على طول».. أناكده ثانية، «عجبا، كيف لا تتوقف وكيف لا يكون لديك موقف، حتى سياراتً الأجرة لها موقف في العلاوي والنهضة.. أعود وأطرح عليه سؤالاً فلسفيا عن هدفه

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

في الحياة وماذا يريد منها، وكيف يرى نفسه بَعد عشر سنين من الآن.. يواجهني مستوضحاً بنظرات قلقة، يبتسم بعدها حين يدرك عدم جديتي، فيظهر ضرسين باقيين في فمه، يعود إلى تقبيل كفّ يده ووضعه على جبينه مردّدا: نعمة، نعمة، نعمة.. أتمادى في مزحي معه، «إذا عندك مليون دينار ماذا ستعمل بها؟ فيجيب بعد تفكير قصير، «سأشتري المبايل الذي يحكي ويغني، وكذلك مسْتلة وأقلاماً للأولاد.»

في تلك الصبيحة الربيعية الصافية، أعطيه مبلغا يستحقه وشوكولاتة، أو «مستلة» كما يسمّيها، يشكرني فرحًاً، يقبّل كّفّه ويضعه على جبينه مراراً، يعْدني حين اقتراب موعد سفري إلى بريطانيا، بأن يجلب لي تمراً وبيضا بلديا مع خبز بيتي، لكي آخذها معي إلى «لندة».. وعندمًا يخبوَ النهار، يغادر الحديقة طويلاً ونحيفا مثل رمح، مردداً بتواصل كلمة نعمة، فيبدو ظلّة أطول منه بَكثير.

* * *

منشورات «ألف باء AlfYaa»

قمامة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أفتح الباب لصديقي هيثم وأنا مغمض العينين، لم يكن يتسنى لي الراحة ولا النوم أبداً بسبب تلك المشكلة التي سلبتني راحتي، لا يوجد غير حل خارق للتخلص من القمامة والحشرات، حيث لا تعود أزمة المزابل التي أمام بيتي تقلق تفاصيل يومي.

«في الحقيقة، القمامة التي تشتكي منها، لها فوائد جمة، »يعلقّ هيثم بتهكم، «إنها تعجل بقرار الهجرة، كما أنها تنتج لك أجود أنواع الحشرات تحسدك عليها بعض الشعوب، تقدمها كمقبلات لنسبة البروتينات العالية فيها، كما أن حليب أنثى الصراصير مفيد جداً وذو قيمة غذائية عالية.»

كنت أعشق مدينتي الجميلة، غير أنها اليوم ثكلى شعثاء غبراء منذ أن استباحها الخراب، هجرتها النظافة والحدائق وفارقها التمدن والجمال، وأمسى كّلّ شيء فيها ينّم عن اضمحلال وضمور.

يتمادى صاحبي في تهكمه وبرودة أعصابه، «مدينتك الأثيرة اليوم مزبلة بدينة تنزّ من ترهلاتها روائح عفنة، وعلى وجه الخصوص في أوقات الصيف.»

لا مناص من تنظيف المكان عند ناصية الشارع اليوم، وجعل هيثم يوافق على مساعدتي في جمع القمامة مقابل وجبة دسمة.. حملنا ما يرميه الآخرون إلى حاويات مخصصة للنفايات، مع ترك ملاحظة ورقية، «كن أنت التغيير الذي تريده».. معذرة غاندي العظيم، ستغيّر طريقة تفكيرك لو عشت في بلدنا، من دون ريب، ستحصل على أعلى نسبة من السخرية والسباب.. وقفت عند مكان القمامة طالبا من المارّة العابثين أن يرموا قمامتهم في المكان المخصصً لها ملاحظا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بهدوء، «إنه شارعنا، والأجمل أن يكون نظيفا، لنحافظ معا علىً نقاء هوائنا وعلى صحتنا».. ولكنهم نكاية بيً، صاروا يخلفّون وراءهم أكياس قمامتهم مع كلمات غير لائقة، أسمع بعضهم يشتكي من وضع مزرٍ، «أين هي الحاويات، سرقوها وسرقوا البلد.. لا ماء، لا كهرباء، لا مرتبّات لعمّال البلدية، لا رقابة، لا ضمير.»

جلسنا أنا وصديقي على الرصيف وسمعته يقترح، «دعك من كل هذا الهراء، الحل الأمثل هو أن تشتري بطل عرق، تشربه قبل أن تنام لتنسى كل شيء.. سيجعلك لا تعير اهتماماً لرائحة نتنة ولا تحس بلسعات البعوض لأنه لو تجرأ وامتص دمك، سيروح في سابع سكرة .»

يشغلني موضوع القمامة على نحو كبير، ألجأ عصراً إلى ماكينات البحث في الإنترنت، علنّي أجد حلاً، أتشفع إلى غوغل طالبا العون، يقينا لن يطلع لي بمقولة «اصبر، فإنّ غوغل مع الَصابرين»، بلً ليرشدني إلى صراط المعالجات المستقيم السليم.. أضغط بيدي على مفاتيح البحث متضرعاً مستغيثاً، أجد حلولاً لمشاكل مماثلة كقضية التبول على الجدران، إذ يقوم مستاؤون من رائحة البول في إحدى الدول بكتابة آيات مقدسة على الجدار بعد تنظيفه، الأمر الذي أبعد متبولين يهابون من قدسية الموقف والمكان.. تخطر لي حينها فكرة، أقوم بتنفيذها على الفور.

أهتدي أخيرا إلى أم الحلول.. أهرع إلى السوق فأشتري صورة كبيرة ملوّنة.. أرجع إلى الشارع، أنظف ما هو أمام الدار، ألصق على الجدار صورة مجسّمة لقائد ديني متميز وبظّلّ مهيب، ينضح تقى وورعاً، ويعتمر عمامة كبيرة فوق

منشورات «ألف باء AlfYaa»

رأسه .

لا مزابل بعد اليوم، فما من أحد سيجرؤ على رمي قمامته تحت صورة مهيبة لرمز ديني ذي هيبة وإجلال.. أرفع قبعتي عرفاناً بالجميل لعمامتك.. كيف لا يقتنع بعضنا بجدواها؟

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أي حرب؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

متفرجون موجوعون ومتطوعون متحمسون يجمعون قطعاً بشرية متفحّمة داخل أكياس، يشاهدونه اليوم يسير نحو موقع الانفجار، وهو يحمل شموعا موقدة يتساقط دمعها على يديه ويختلط مع دمعه.. يهزونً رؤوسهم آسفين ويواصلون عملهم.. هل كانت هذه حرب أخرى؟ كيف له أن يتذكر .

ما يخطر على بال ماجد اللحظة ذلك الفرح الجاهز الذي يحّلّ مرة كل عام.. يوم طلبت منه والدته إطفاء شموع تثبّتها في كعكة مزينة، ويرجع خياله إلى الوراء، إلى يوم يصحب معه حزنا ملفوفا بكفن عمّ كان نزيل دائرة الأمن.. وهو طفل، يملأ الّبيت بصَراخه جلبا للانتباه، لم تتطلع إليه بفرح عيون خال فرّ إلى مكان مجهًول، ولم تفرح به جدّة تحتضن بدلة بيجاما لغائب وتنذر نذورا للأولياء الصالحين في انتظار عودته سالما.. ويوم مرور عًامين على ولادته، ينفخ والده بعجالة شمعًته الأولى، مرتديا ملابس عسكرية وبسطالاً ثقيلاً وحاملاً حقيبة سفر، وعند بأّب الدار، تنتظره سيارة تأخذه إلى جبهات قتال نشب للتو، أي حرب كانت؟ لا يريد أن يتذكر.. تحول الحرب دون حضور والده إلى مراسم إطفاء الشموع وتناول الكعكة لثلاث سنين متتالية، رغم أنه كان متهيئا لإسماعه نشيداً عن بط يسبح في الشط وغزالة «غزلّوها وبًالماء دعبلوها».. في السنة التالية، تمرّ ذكرى يوم ولادته بصمت، احتراما لجار استشهد في الحرب، أي حرب كانت؟ لا يريد أن يتذكرً.. يحزن حينما لم يحضر جاره وزميله في المدرسة عيد ميلاده التالي، لم يعرف ما معنى مهجّر، ولماذا يحّلّ في دار صديقه رجال غلاظ تخيفه سحناتهم القاسية؟ لا يدري.. يعتاد على لون أسود يطغى على الألوان الأخرى في الدار وحوله، وعلى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صمت يغلفّ عمّة حزينة تأتي لتسكن معهم، كما ويألف أغاني لقائد يحثّ أتباعه للمضي إلى كل ما هو عكس الحياة، يرى صوره على الجدار أينما حّلّ، لا يمكنه تفسير سبب عدم تعاطف والدته معها، بل واستمرارها في بكاء أسود وثوب أسود وقلق أسود خوفاً عليه.. وذات يوم، علقّت صورة أخرى بشريط أسود لوالد يشتاق إليه ويجتهد في نطق اسمه أمام المرآة كل يوم، بابا، بابا، حصلت على المرتبة الأولى، أحتاج إلى توقيع ولي الأمر على شهادتي المدرسية، أريد أن تأتي وتحملني على كتفك وتلف بي كما كنت تفعل في إجازاتك القليلة، حسنا تعال أطفئ معي شمعات تكاثرت فوق كعكة عيد ميلادي.. آه لو تعلم يا أبي كيف نبت لي زغب شوارب اليوم! لكنه لم يكن يحمني من خوفي وسقوط قلبي هلعا من أصوات مرعبة لطيارات وعصف صواريخ، هي الحرب مَّرة أخرى، أي حرب كانت؟ لا أريد أن أتذكر.. يا أبي، ليتك بيننا الآن، تعلمني الصلابة وتجعلني أشعر بالأمان، وأتعلم كيف أحلق، هل يتوجب عليّ أن أحلق شعر وجهي أم أتركه بلا حلاقة؟

تصمّ أمه أذنيه عن أصوات مرعبة لقصف وقنابل، تحتضنه كي يهدأ رغم أنه أصبح شابا في عز مراهقته.. تهرم أمه ولا تترك مكانها قبالة ماكنة خياطة مستهلكة، تجلب إليه كعكة معمولة من دبس وطحين متعفن، تضع عليها شمعات لا تشتعل وهي تقول مازحة: «شغل حصار».. كلمة تصير مألوفة، تبرّر كل فعل وكل لا فعل وتفتح أبواب حرمانات لا تحصى ولا ترحم شبابه، جسم فتي بحاجة لتغذية، وذهن طازج بحاجة لعلم، وعاشق غض بحاجة إلى مظهر لائق ونقود يشتري بها هدية لحبيبة تصبح زوجته.. تودّعه في كل صباح حينما يذهب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إلى عمله كدموع الوداع الأخير، لا تدري فيما لو كان سيعود سالما كاملاً أو قطعاً متفحمة تدلهّا عليه هويته في موقع انفجارً.. يجيل النظر باشمئزاز حوله، سيطرات، ازدحامات، غبار غريب، أنابيب صرف صحية فائضة، فوضى، أخبار تخلو من مسرّات، عيون أمن، استكبار رجال سلطة والكثير الأسوأ.. معظمنا يموت هنا مبكرين، حتى وإن ندُفن في عمر الخامسة والسبعين.

كل يوم في المساء عندما يعود ماجد، يقوم بأعمال يومية لا تستهويه؛ يشغّل مولدّة الكهرباء، يحضر فواتح قريبة مقدّماً التعازي، يبحث عن غاز وديزل وماء صالح للشرب، يفتشّ في الصيدليات عن دواء مفقود وعن طبيب لم يفر من البلد أو يغتاله أحد، لا يعرف متى ينام ومتى يصحو وكيف تمضي أيامه وتواريخها، حتى يحّلّ يوم عيد ميلاده حين يذكرّه به أحدهم في هذا اليوم.. غير أنه ساعة ما كان يهمّ بإطفاء الشموع، ينطلق صوت مدوٍ قاتل من منطقة ليست بعيدة، يهزّ الطاولة أمامه فتسقط منها أقداح وتتكسر.. يغيب في سكون ضاج وذهول، يمد يده نحو بطن منتفخ لزوجته، يتحسسها، ينتزع فجأة شموعاً من كعكته، ويهرع نحو الشارع وسط ذهول زوجته.

«يا وطنا، يا حبل غسيل لمناديل الدم، يا دما مسفوكا في كل ساعة، أنَا المتعوس ابن الشقي ابن البائس، أَحتفل بعُمر لم أعشه، أريد أن أحيا، أريد عمرا ضاع مني، أريد أن يحيا ابني في عالم غير الذي خبرته، هلً هذا كثير عليّ...»

متفرجون موجوعون ومتطوعون يجمعون قطعا بشرية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

متفحّمة داخل أكياس، يشاهدونه اليوم يسير نحوً موقع الانفجار، وهو يحمل شموعا موقدة يتساقط دمعها على يديه ويختلط مع دمعه.. يهزوّن رؤوسهم آسفين ويواصلون عملهم.. هل كانت هذه حرب أخرى؟ كيف له ألّا يتذكر.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الطريق

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يجد مؤيد نفسه محشورا في سيارته وسط طوابير سيارات عديدة، يطفئ سائقوها محرَّكات صدئة ويترقبون.. لا يتمكن من الرجوع ولا من التقدم، يمدّ يده إلى تلفون نقال ويكلم زوجته لتطمئن.. يلتصق لحمه بمقعد القيادة ويسيح.. تتغنج في ماخور نهار عارٍ شمس وقحة كعاهرة متبرجة، تخترق كل ما تحت جلده وتصيبه بهذيان شاحب.

في البيت، سيكون ثمة من يكون جالسا في ركنه اليومي على مقعد قديم، فيبدو وكأنه ولد من أحشَاء قماشه ورحم جلده.. ليغمغم بصوت مرتعش، «أنت ابني أنت؟ أين نتيجة الأشعة؟ أين الدواء؟ تكون طوال النهار عند الطبيب وتعود لي خالي اليدين.»

يطلق أحدهم بوق سيارته بتواصل، يتبعه آخرون بالمثل، دون طائل وبلا وعي.. ترتفع أصوات السائقين:

ـ ماذا حصل في الطريق، مفخخة لو عبوة؟

ـ أتعرف طريقاً آخر؟ لنرجع، هل يمكن الرجوع إلى الوراء؟ـ نريد أن نتقدم وليس أن نرجع، من منكم يرشدنا؟ـ متى يصبح الدرب متاحاً، متى نتحرك، اللعنة على....ـ يا جماعة، اللـه شعليه؟ الكفر حرام

ـ أنعل صفحة أبو هيچي حكومة، لا بو أبو هيچي دولة، وأنعل أبو مجيد

من هو مجيد؟ أراد أن يسأل المتكلم، ولكنه عدِل .

صوت طائرة هليكوبتر يقطع أفكاره ويفزع سرباً من طيور مهاجرة.

يوم أمس، يسأل صديقه، «إلى أين؟"

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- إلى بلدان اللجوء، هاجر يا أخي أنت أيضا، هاجر، الحياة هناك بشكل وطعم آخر، حتى حيواناتهم أفضَل من البشر هنا.

ينكمش في زاوية حلم، يتخيل نفسه مستلقيا تحت ظلّ وثير، يستمتع بكوب عصير بارد في ركن مبرّد، لاً يقلق وينشغل باله حينها بقيظ ولا بمولدّة أو بصاحب مولدّة.

يوم طرح عليها الفكرة، نظرتْ إليه مليّاً بعينين مسلوقتين كبيضتين متحجرتين في متحف وجهها، ثم صرفت نظرها عنه بحدّة، لم تنطق، بل عادت تكنس السجادة بقوة.. في الفراش، سرعان ما ستنام لحظة أن تضع رأسها على الوسادة.. من تلك المرأة؟ يحّدق في وجهٍ يقطنه تقطيب متواصل ويقيم فيه انزعاج دائم.. لم يعد يعرفها.. تنهض غبشا في كل صباح، تطبخ، تلبس الولد، تأخذه للمدرسة، تذهبً للعمل، تعود مسرعة إلى البيت ظهرا، تعدّ المائدة، لا تعير بالاً لما يتمتم به أبو زوجها من كلام جًارح، تبتلع بصمتها نقّه وانتقاداته، تهمهم، «عجوز متقاعد شكّاء نكدي لا يثير سوى الشفقة.. »تغسل صحونا وملابس، تنظف الدار، تذهب للسوق، تهرع نحو دار والد عًاجز ينتظرها، ترجع مساءً، تعدّ العشاء، تدرسّ الولد، تحمّمه، تأخذه لينام، تنام هي، تلقي على سريرها جسداً كفر بها، ثم تأخذ بالشخير.. ثمة أنثى تشخر بجواره.

يصمت، ويصمت جميع من في الطريق فجأة، يكّفّون عن مسبآت وشتائم وكلام بذيء.. يسود ما حوله هدوء مريب ويتخثر الطريق بسكون من دون لغط.. هل قنطوا، هل اكتفوا بالسخط والسباب، أم إنهم تشبعوا ببخار عجْزهم، كيف لهم أن يمضوا في الطريق، ومتى يجدوه.. متى نهتدي إلى طريقنا؟

يتلفت حوله ليرى طريقا عديم الملامح مرتبك الخطى، امتلأ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بطـوابير سـيارات وبـالظلاًل المبهمـة.. يـتفحص السـائقين عـن قرب، ولدهشته يرى خرافا على المقاود.. تمتد كفه نحـو عينيـه، يفركهمـا تفاديـاً لحيـرة، وًحـين يفتحهمـا، يبُصـر يـده وقـد كسـاها صـوف كثيـف.. يفـزع، وحينمـا يحـاول الصـراخ، تخـرج مـن حنجرته مأمأة عالية .

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أحزان الدم
(سرديات أزقّة)

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الزقاق الأول

تفتح هنيّة عينيها ببطء، ترى نفسها ممدة على الرصيف، تجيل النظر فيما حولها، أوراق تتطاير في هواء فحمي مغبّر وحالة من الفوضى، تسمع جلبة، لغطا، أنينا، سبابا، أبواق سيارات إسعاف وشرطة، طقطقة زجاجً يتسًاقط مًتهشما، رائحة لحم مشوي وغاز محروق تقرفها، فوضى مؤذية تسودً الأجواء عقب الحادث.

تسترجع زمنها، قبل قليل كانت تسير مهمومة في الشارع وحدث ذلك الشيء المرّوع، تتناثر قربها أحذية وأطراف ورؤوس لمن كانوا بشراً، جرح في جبينها يؤلمها وآخر في ساقها.. تحاول بصعوبة نفض ما عليها من غبار، غير أنها تنتبه إلى وجود شيء ما فوق صدرها.. تتفحصه هذا الشيء جيدا، ترى ذراعا مقطوعة لامرأة، مرصوصا عليها أساور ذهب ومنتهياً بيد عامرًة بخواتم ذهبية، لا تدريً ماذا تفعل.

قبل أن يطردوها من عملها كعاملة تنظيف في مدرسة، كانت تسرق اضطرارا، كل ما تنساه الطالبات على مغاسل المرافق الصحية وحتىً المناشف الصحية والصابون، تبيعها

وتشتري بها طعاما ودواءً.. في البيت، كان ينتظرها زوج معوق وأم مريضة وُأطفال صغار.

واليوم، ها هو القدر قد وهبها ذهباً يبرق بلمعة مغرية.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تذكرت أنها رأت مثله حينما كانت صغيرة، يوم كانت تدخل إلى غرفة تغسيل الموتى في المستشفى مكان عمل أبيها، تراه وهو ينفرد بموتاه خلسة ويفتش جيوبهم، يفرّغها من محتوياتها ويستولي على حلي وخلاخل سرقها جنود مقتولون في حرب الكويت، ينزع غنيمتهم ويعطيها لها، لتخبئها بين طيّات ثيابها.

تتمعن في دماء قانية لوّثت لمعان المعدن الأصفر فيخفق قلبها، تتلفت حولها، وتحاول نزع الخواتم من كف الذراع المقطوعة، غير أنها لم تفلح.

هل آخذ ما حباني القدر به دون غيري أم حرام، هل حلال أن تموت أم وينام أطفال من دون طعام؟ أين رب العالمين ليجيبني، هل بإمكانه أن يوقف دموعاً مندلقة من عيني زوج عاجز ضعيف ويطعم ويكسي صغارا لها، وينجي عجوزاً من مرض كي لا أرتكب معصية، إلام أنتظرً، وما أنا فاعلة؟

لا تفلح مرّة ثانية في انتزاع الخواتم من أصابع والأساور من معصم هامد.. تلملم أطراف عباءتها وتنهض سائرة بحذر.

ـ خالة تعالي.. سنسعفك، لا تخافي، أنت تنزفين من تحت عباءتك.. سوف تموتين إن لم نسعفك.

لا تبالي هنيّة بصراخ وتحذير مسعفين يهرعون نحوها.. يجبرونها على التوقف، غير أنها تتمنع وتقاوم، يحاولون عنوة فكّ اشتباك أصابع يدين متشبثتين بعباءتها.. وحين يفلحون، تسقط منها يد بشرية ناضحة بالدم، في أصابعها خواتم ذهبية وحول معصمها أساور ثمينة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الزقاق الثاني

يحمل إبراهيم بيده عشر أوراق نقدية وهو حائر، غير أنه يتعوذ من الشيطان ويلتقط مسحاته ليتجه إلى عمله، ورغم أنه كان عامل نظافة يتسلم فوق مرتبه أحيانا مبلغا ضئيلاً من كل بيت، إلا أنه بعد إحالته إلى التقاعد، وبعدً طرْدةً من داره وتهجّيره، صار يستجدي المال.

تلجأ إليه ابنة أرملة مع سبع أطفال ويتفاقم عوزه ثم تلحقها ثانية ريثما يعود زوج مختفٍ لها.. يختار له مكاناً بائنا مقابل جامع ويستجدي، يعرفه سكان الحي ويتعطفون عليهً بأعمال سخرة مقابل أجر زهيد.. غير أن عمله الجديد لا يتطلب سوى قوة أعصاب وبأس وتغاضٍ، ولطالما اشتغل في شبابه مهنا أسوأ من عمله الحالي، الذي يحاول أن يخفيه عن أقرب الناسً إليه:

ـ عمي، شغلتك تنظيف المكان بعد كل مفخخة وانفجار.

يحمل مسحاته ويظل يلمّ بقايا بشرية في أكياس، يزيل ما علق على الجدران من لحومهم، يكنس مكان الفجيعة بمكنسة تصطبغ بلون أحمر قانٍ، اعتاد عليه من زمن بعيد حينما كان يشتغل كمنظف في أحد السجون، يوم كان ينظف زنازين عفنة من مخلّفّات معتقلين؛ ملابس مهترئة مقطعة تجفّ عليها دماء، جرادل براز وقيء، أشلاء ضامرة تموت في غفلة من زمن داعر جائر، حتى سبّب له ذلك صداعاً وأرقاً شديدين ما زالا يستوطناه.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مال لا بأس به، يشبع بها بطونا جائعة ويتفادى عوزا وقهراً واستكانة.. مال مقابل تنظيف مكاًن جرائم عصرية بشعًة، يا لها من عملية سهلة ويسيرة!

يحاول الابتسام فيخرج طعماً مراً من شفتيه.

الزقاق الثالث

يصرخ رجال الأمن فجأة، ابتعدوا عن المكان، هذا انفجار ثانٍ بنفس المكان، انفجار مزدوج .

تصرخ أم جاسم بعد وقوع الانفجار منادية أسماء أولادها.

ليس كل من يطلع للشوارع ويجمع من القمامة ما يمكن جمعه، يمكنه العمل كـ «عتاّق»، وليس كل واحد يجمع قناني فارغة ومواد بلاستيكية أو معدنية وزجاجية منها، يتمكن من بيع محصوله إلى من يعنيه أمر تلك النفايات، حتى تلك «الحرفة» صار لها قوانينها ومحتكروها ومحترفوها، وأم جاسم ليست واحدة منهم بالتأكيد، ولو كانت غير ذلك لما طردوها وأولادها ومنعوهم من ممارسة «العتاّقة» في معظم المناطق، أمر اضطرها إلى أن تلجا لطريقة أخرى للعيش.

تنتهز أم جاسم فرصة حصول انفجار سيارات مفخّخة وانشغال ناس مسعفين وفضوليين بجرحى ومقتولين، فتدفع صغارها لالتقاط ما يتناثر على الأرض من ممتلكات شخصية للمصابين في الحادث كتلفونات جوّالة، مَحافِظ، قطع حلي ومصوغات، إن تكن محظوظة، وفي حين آخر لا يكون هناك

منشورات «الف ياء AlfYaa»

محصول جيد أو تضايقهم قوات الشرطة وتطردهم من مكان الواقعة.

في باكر صباح يوم جمعة، تصحو على انفجار ضخم، يوقظها صوته من نومة بائسة:

ـ انفجار براس الشارع، يلله يلله بسرعة.

ينهض الصغار بتثاقل، تحثّهم على الإسراع وتركض قبلهم إلى مكان الصوت، ترى جرحى يأنّون وقتلى بأعداد غير معلومة، ودخان ينبعث من محرّك بقايا سيارة كانت مركونة قبالة الجامع، ويتجمع ناس ناجون ومارّون منشغلون بما جرى، في حين يتسلل أولاد صغار للمكان ويلتقطون ما يجدونه على الأرض، ويركضون نحو أمهم ليسلّموا إليها ما وجدوه.

تكون أحيانا غنائمهم كثيرة، تجمعها أمهم في قطعة قماش كبيرة وتمَضي مسرعة إلى البيت فتخبأها في وسادة بالية، كي تعود مرّة أخر إلى موقع التفجير.

في ذلك اليوم، تصل هاشمية إلى دارها حاملة صرتها كغنيمة أولية، وعند باب الدار، تسمع صوتاً مرعباً.

تسقط صرتهّا من يدها وعباءتها على الأرض، يراها الناس تجري نحو مكان الانفجار الثاني صارخة.

«جويســـم، عبيّـــــس، كويـــــظم»

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جذور نافقة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عند بائع حلويات ومثلجات، تقف نسرين إلى جوار أخيها المغترب، لاهثة مكتنزة وتتّز عرقاً، تنمّ ابتسامتها وعيناها عن رغبة واحدة، ألا وهي الاستحواذ والاستفادة من وجود ذلك الأخ في السوق إلى أقصى حد.. تطقطق أساور ذهب رصّت على معصمها حينما تمدّ يدها نحو علبة حلويات، سرعان ما تضعها في سلتهّا من دون تردد، قائلة من دون صدق، «أنت دائما من يدفع، تخجلني يا أخي، أمانة الله ورسوله وأهل البيتً، مرّة ثانية أدفع أنا».. تعود ثانية إلى لعق مثلجات طلبتها بالفواكه، وهي تسحب طرف عباءتها نحو رأسها جذلة .أخته الصغرى نسرين، جميلة ونحيفة بعمر أربع سنين، تطلع خلفه على دراجته ويطوف معها شوارع مدينته الصغيرة، يجعلها تتقدم عليه في سباق الجري، يصطاد لها دعسوقة مرقطّة، يبتهج لضحكتها حين تدغدغها الحشرة أثناء مشيها على يدها، يجعلها تمسك طائرته الورقية وتلهو بها، ويقوم بأداء واجبات مدرسية بدلها، يتصفح معها أول كتاب تقرأه، ويخبئ عندها أوراقاً ممنوعة.. تذرف دموعاً غزيرة حين يودعها إلى منفاه .

في سوق مزدحمة وعراق جديد، يبُصر أكداسا غير مرتبة لبضاعة مستوردة، ويسمع صوتا ينادي عن بيع حَاجة بألف دينار، ثمة نساء عابسات يقلبّنً بضاعة في عربة مكدّسة بأشياء رخيصة، وذباب يتجمع على صينية حلوى يبيعها صبي نعسان.. ناس متعبون متجهمون يسيرون بلا هدف ويقطعون السوق بتمهل، مرتدين دشاديش ونعلانا، تبرز من أقدامهم أظافر طويلة غير مشذّبة، ويكسو رؤوسًهم شعر فضي ويعتلي ذقونهم زغب أبيض.. فوضى تسود المكان لم يعهدها منذ زمن.

زمن مرّ على تلك الأيام التي كان يتفحص فيها نفسه في المرآة، يعيد ترتيب شعره بمزيد من «بريل كريم»، ويرش

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عطر ماركة ريفدور على ملابسه قبل خروجه، ولو يذهب إلى موعد أو مكان عام، يحلق ذقنه ويكوي ملابسه ويتأكد من هيأته في المرآة مرات عديدة، أناقته تعكس شخصيته، كما تعلّم من أهله وأترابه.

يتبضع أخوه معه مرتدياً بذلة رياضية فضفاضة، لا تتلاءم مع سيارة حديثة اشتراها مؤخرا لا يمتلك هو مثلها في غربته، ويبدو أنه مهتم بنظافتها أكثر من اهتمامه بتنظيف بيته الذي كان في الأصل بيت أخيه المغترب، غير أنه استولى عليه بحجج واهية.

في منفاه، يضطر للعمل ليلاً بأجور إضافية ليوفرّ مالاً يرسله لأخته وأخيه، لا ينسى قلقه وعبء أمانيه في أعوام طويلة من التغرب، يجمع تبرعات وينقطع عن لين عيش في أيام حصار، ويخرج في تظاهرات ضد قرارات لكبار في شنّ حرب.. وفي أول زيارة لبلده بعد زمن، يقبّل ثرى أرض فارقها، غير أنه يسمع أخاه هامزا غامزا، «ما همّك أنت؟ لم تمرّ بفترة حروب وحصار وحصةً تموينيَّة، ولم تدمن مثلنا على طعم حنطة سوداء ولا أصوات التفجيرات، عشت خارج جحيم الوطن، هنيئاً لك.»

يا أرضا، يا نخلات، يا حنينا عشته، يا أماكن عشعشت في ذاكرة تعَتقّت، يا أخاً لا يرىً فيه إلاّ مصدر نقود، بقدر ما يحصل منه أكثر، فهو «زايد خير»، يا أختا تستغله، يا زمنَ ذاكرة فائتة وفائقة لم يعد جميلاً، يا حسرتيً! كيف يتسرب دود قبح لينخر تفاحة الذاكرة والحلم؟

يحمل أخوه ما اشتراه لهم إلى سيارة فارهة يمتلكها، دافعاً بكرش كالبطيخة إلى الأمام، تسحب أخته عباءتها ومنديلها نحو

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

رأسها، وتلملم أطراف ثوب أسود طويل لا يخفي ظلهّا المكوّر، وتنشغل بتقليب مشترياتها برضا من دون أن تلتفت إلى وجه خائب ومندهش لأخيها.

هل هذه المرأة أختي؟ ماذا فعل الزمن بنفوس من أحببتهم، ماذا أقول لوجْد أضناني، لحنين عذبنّي طويلاً، أين حلم ظّلّ يراودني لثلاثين عام، أين أختي نسرين، أين أهلي، أي أرض هذه، لماذا جئت إلى هنا؟

يركب سيارة أخيه ويتأمل شمس الغروب حين تختفي فوق نهر دجلة.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عشائر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بعد مشاحنة غير مجدية مع السائق، ينزل غسّان حانقاً من سائق سيارة الأجرة الذي أخذ منه مبلغا مبالغاً فيه، وفوق ذلك، أطفأ جهاز التبريد في منتصف الطَّريق.. يحاول ألّا يعكر مزاجه وهو يطوف في مدينة فارقها منذ زمن طويل، يتعثر بقلبه وهو يمشي في طرقاتها.. ثلاثون عاما وثلاثون ترقبا وحنينا، وثلاثون تشردا ووجعا.. ينصحه أصدقَاؤه في الغربَة بألّا يذَهب «ستتغير الأَحوال بَعون الخالق، انتظر على الأقل ستمائة سنة.»

يمتد عنق المدينة ليصل رأسها بالنهر، وتجري أمور تحت جلدها لا يتمكن من تفسيرها.. يظل ماشيا في الشوارع ومتعجبا لما طرأ عليها من تغيير.. ينتبه بحسَ أمني إلى أن رجلاً يتبعَه أينما يخطو، غير أنه لا يعير للأمر اهتماماً كبيراً.

جسر المدينة شاخ وتصدّع ومازال محتفظاً باسمه «الجسر الجديد»، وحتى النهر تغيّر، تقلصت مياهه كثيراً وزحفت إلى شاطئيه نباتات غريبة.. كان يطلع فوق سياجه الحديدي ويرمي من فمه نوى تمر فيراقبه وهو يهوي إلى النهر، يرفع دشداشته القصيرة ويتبول في مياهه.. كان هذا النهر شاهداً على كل خطاياه الصغيرة، حين سرق تفاحة من حقيبة زميل في صفه وراح يقضمها باستمتاع عند شاطئه الأمين، وحين كان يّفّرغ رجولته عند شاطئه في بعض الليالي، بينما كان بعضهم يعيب عليه زغب ذقنه وتكسّر صوته، ولمّا اشتدّ عوده، كان يستلقي قرب شاطئه وينفث دخان سجائر بين كل جرعة عرق وأخرى.. وحين اكتملت شواربه، كان يجري نحو النهر ليحرق على جرفه منشورات سياسية، ويودع أسرارها لمياه صامتة، تجرف أحزان مدينته ومتاعب ناسها .

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يلتفت غسّان بحرص وضيق، ويبصر رجلاً كان يتبعه.. ماذا ينوي هذا الرجل؟ يتعمد على ترك مسافة بينهما، وهو يخطو في أزقة وشوارع مدينة كان يألفها لكن ليس كما اليوم .

كان يلعب في تلك الشوارع لعبته المفضلة، يضرب الكرة نحو الحائط، ويهتف بصوت طفولي احتفاءً بفوز يتخيله.. تثقل خطواته عليها صباحات الذهاب إلى مدرسته مع حقيبة تتكاثر فيها كتب ودفاتر يصعب حملها.. نفس الشوارع تئنّ من خطوات يافعة صبورة له وهو ينتظر عبور حبيبة لا يعرف أين هي اليوم، وحين تهّلّ من بعيد، يدير وجهه صوب قلبه ويرقب دقاتٌ متوثبة تكاد تّشّق قميصه.. يلتقي عند ناصياتها بأصدقاء طيبين بعثرهم زمن طاعن في القسوة.

تسير خطاه على الأرصفة، بنصفه الهائم في ماض كالطيف، ونصفه الآخر الذي يراقب ما حوله باستغراب.. تكتظ أمامه رايات سوداء ولافتات وغبار وحفر وقمامة، ومن فينة لأخرى تنطلق منبهات سيارات حديثة وقديمة بضجيج وفوضى، وفجأة وبدون سابق إنذار، يرتفع صوت قارئ من وقت لآخر بدعاء أو بنواح على أئمة استشهدوا من قرون بعدهم في ذاكرة شعب مازال يحيي مآثرهم بشعور مغلفّ بالذنب.. يرفع رأسه فيقرأ أسماء لدكاكين، «أسواق موسى الكاظم»، «مخبز كافل الحوراء»، «نجارة مسلم بن عقيل..» ما الذي تبدّل إذاً؟ الحزب القائد أمسى اليوم العقيدة القائدة، ودولة القائد اختفت لتتأسس دولة الطوائف، وربما سيصبح بعد حين في كل زقاق دولة، وسيعتبر الناس حياتهم مجرّد أيام يجمعون فيها حسنات تؤهلهم للدخول إلى حياة أخرى .منذ أن نزل من سيارة الأجرة، والرجل يتبعه.. ماذا يبغي منه؟ يرعبه شعور غير مريح كلما أحسّ بأن هناك من يترصده، لكونه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مسكونا بلعنة المراقبة التي ظن أنه نساها، لا أظن أن هذا الرجل مخَّبر سرّي مثل أيام زمان.

ذات زمن، كان رجل أمن يراقبه في دخوله وخروجه من مخبئه، فيضطر إلى تغييره في الحال، وإن اضطر إلى الخروج، يظل متوجسا ومتلفتا على الدوام خشية أن يكون أحد ما خلفه.. ظّلّ يستَحوذ علَّيه هاجس السجن والتعذيب حتى في منفاه، فيسير متلفتا متحسبا من خطوات خلفه، وحين ينام، توقظه كوابيس مزعجَّة فيها ثمَّة من يطارده.. أما الآن، فيخبره أهله بأن كل مغترب أو غريب، هو صيد سهل للمبتزين، يحذرّونه من السير بمفرده، وخاصة ليلاً، وكأن قدره أن يلازمه الخوف حتى بعد زوال الطاغية.

يأتي اليوم بعد غربة طويلة وأحد ما يتعقبه في مدينة عشقه، من المحتمل أن هذا الشخص يخطط لاختطافه وطلب فدية من أهله.. لا يعلم، كل شيء يمكن أن يقع ضمن دائرة الشك والظن في خضم تلك الفوضى والانفلات.

ينتهي به الدرب إلى محل أسواق يملكه صديق له، فيخبره عن قلقه:

ـ هذا شكله ليس من منطقتنا، هل تريدني أن أشجّ لك رأسه بهذه الخشبة؟

وما أن يذهب صديقه إلى الشخص الغريب، حتى تنتهي مناقشة طويلة حادة بينهما بالصياح، وإلى ما يقرب من شجار غير متوازن واشتباك بالأيدي، فيحول بعض الأشخاص دون عراك الشخصين.

يرجع صديقه غاضبا ويفهم منه بأن من يتبعه كان يريد منه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حقاً، ويباغته بما لمْ يتوقعه:

ـ هذا النذل يريد منك «حشم وكوامة»، وسيأتي بعشيرته غدا وينصبون سرادقا في شارع بيتكم بعد أن عرفك وعرف أهلكَ، يقول إنك رقصَّت له حواجبك عندما كنت واقفاً على الجسر بحركة لم تعجبه، وخزرته بنظرة احتقار ثم بصقت على ظلّه.. لا تندهش يا غسّان، يوم أمس دفعت مبلغا كبيراً بعد أن أخذنا بيضة دجاجة جارنا التي باضت في حديقتنا.. كل شيء تغيّر في هذا البلد العجيب.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يوم عادي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أكاد لا أسمع شيئا سوى شتائمهم وأنا في الخط الفاصل بين خيال فج وواقع أُجُاج، بين كابوس كؤود ويقظة مرة، لا أكاد أتلمس فاصلاً جليّا بين هذا وذاك.. أكرّر القول لنفسي إن ذلك أمر لا يمكن أن يحدث لي ولا ينبغي أن يحدث لأي شخص آخر وربما أنا في حلم، لأن ما يحدث لا يمكن أن يكون الّا في المنام.. أسمع شخصاً يصرخ ويئنّ باكياً شاكيا، داعيا لي بزوال النعمة والعافية، ينزل رجال غلاظ من سَياراتهمَ، يتقدمون صوبي، يسحبون مفاتيح السيارة من مكانها بوقاحة، يتركونني برهة ليتباحثوا بينهم.. أخبرهم عن اسمي وعن هويتي وعن مهنتي:

ـ كاتب محترم، مؤلف مشهور، كتبك أمسح بيها قندرتي، يعني المثقفين مثل جنابك لازم يستهترون بحياة الناس؟

أكفّ عن شج أوتار صوتي غير مصدق لما يحدث، ما أزال في آخر أرماق ارتجافاتي وأطوار غضبي، أصرخ عليهم مذعوراً مستنكرا تهمتهم، أحاول أن أهدأ رغم أطنان أسئلة تنثال على رأسي ولاً تكاد تجد أجوبة.. لماذا، ماذا يجري؟

لم يخطر في بالي وأنا أتجه بسيارتي نحو الجسر أن أدهس بشرا، أدهس؟ بل في الواقع هو من «دهسني»، يدعّي ذلك بالتأكّيد، يستوقف سيارتي مولولاً نائحا لتلحقه في الحال سيارة، يتعاطف كل من يستقلها مع «المجّني عليه» ملوّحين بأسلحتهم:

ـ قف أخ الـ.... إنزل، تنزل لو نفرغ هاي المسدسات براسك؟

كنت واثقا من نفسي على الدوام ومازلت أؤمن باننني لم أؤذِ نملة طوالً حياتي، فكيف يتسنى لي الهروب بعد دهس إنسان بدم ولحم ومشاعر وآمال وأحلام، كيف أحتمل فكرة أن أقتل؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لا أعرف من أين خرج لي ذلك الذي يزعم أني ضربته بسيارتي وتركته ينزف، وهل هذا الجرح القديم الذي يستعرضه أنا سببه؟

يتقدم نحوي الرجال مرة ثانية، ورغم تظاهرهم بهيئات جادة، لكن قسماتهم تنضح بمكر واضح:

ـ خمس ملايين لو الاعتقال، شتريد؟

ينشف جسمي من دماء تغذيّة وهي تتحول إلى بنزين ينسكب على نار غضبي، غضب متراكم ومحتشد ومتألب ومتكدس، ينتظر منذ زمن موقفا مثل هذا ليفجّر براكينه، أصرخ بكلمات تفضح مكيدتهم ومّسرحيتهم وحيلهم وطرق ابتزازهم من أجل سلب المال، أؤكد لهم بصوت الحق العالي براءتي وإفلاسي وخلو محفظتي من النقود، وأوجز لهم حياة كفاف وزهد أعيشها، من غير أرصدة ولا ذهب ولا مال فائض ولا قريب ثري ولا هم يفرحون، ينطلق صوتي راعدا وتموج أنفاسي في صدري كبحر هائج، منوّها بأنني على حقً ويقين من بطلان التهمة، يتجمع بعض المارّةً حولنا ويجرؤ أحدهم على الإقتراب مني موشوشاً:

ـ قل فوّضت أمري إلى الله، تجّفّى الشر عمّي، ذولة مسنودين.

يهمس آخر:

ـ لا تجادل مكبسلين؟ يسترسل في كلامه إليهم، «خطية هذا رجّال كبير، سامحوه وليداتي»، ويرجع لي هامسا ناصحاً بأن لا أعطيهم اسمي وعنواني، لأنها قد تتحول إلىً قضية فصل عشائري وأخسر بعد ذلك الملايين مجبراً.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أصـرّ كـرةٌ أخـرى علـى براءتـي مجـادلاً وحانقـا، أنفـض جيـوبي، أخلـع سـترتي وأرميهـا علـى الأرض، أطلـق صـيحًات قهـر غريبـة عنـي قـافزا فـي الهـواء بـين الفينـة والأخـرى مثـل المجنـون، حتـى يصـيب الرَّجَّـال وصـاحبهم النصّـاب وجـوم مفـاجئ، ينتهـز سـائقو سـيارات عـابرة سـنوح فرصـة الهـدوء، ويخرجون رؤوسهم من نوافذ سياراتهم داعين إلى التراضي:

ـ صلوّا على النبي ياجماعة، مايصير الّا الخير

يرمـي علـيّ أحـدهم مفـاتيح سـيارتي وينسـحب فينسـحب خلفـه الآخـرون راجعـين إلـى سـيارتيهم، وقبـل أن ينطلقـوا بسـرعة يخلّفون وراءهم غباراً كثيفاً كلاماً أفزعني:

ـ نعرف وين تسكن، توقع العشيرة كلها عندك من الصبح.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إلى من يهمه العمر
(لذكرى أناس راحوا عبثاً)

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نـرفس أحشـاء الصـمت والحتـوف ونتسـلل إلـى الشـوارع.. نمشي بصف واحد، أعضاءً من كتل، وأجزاءً من كل.. نمضـي غير عابئين بنظرات نـاس وردود أفعـالهم.. لا تُعيقنـا اختلافـات في لون وحجم وخشونة ملمس لكوننا ندرك ما نروم إليـه جيدا، نريد أن نقول مـا عنـدنا فحسـب، ثـم نرجـع إلـى جـوف صـمتنًا وأماكننا الأبدية الأخيرة.

تفغر نـاس أفواهـا لهـا حينمـا نمرّ قبالتهـا وتخـرس مذهولـة، يـدير البعض وجهـه عنّـا ويجهش فـي بكـاء كـاوٍ، فـي حين ينطّ أخرون من فوقنا غير مكترثين بنـا ولا متعـاطفين معنـا، هؤلاء هم من نرغب في توجيه انتباههم لنا.

نتوسط السـاحة الكبيـرة ولا يعكـر صـفو الهـدوء، إلّا ضـجيج ولغـط نـاس متجمعـين حولنـا مثـل علامـات اسـتفهام متضـخمة بالفضــول، يرقبــون حركاتنـــا ويوجّهــون نحونـــا كـــاميرات هواتفهم..

كل شيء هادئ فينا حتى ظلالنا .

هل نستهل المهرجان بالتحدث عن مصادرنا وأحجامنـا وعن الألوان، ألواننا؟ أم نقصـر الكـلام علـى مهماتنـا النبيلـة ومـا ننقلـه عن لسـان كلنـا نحـن الأجزاء؟ بالمناسبة نحـن لا نمتلـك ألسـنة، فحال كل منا يحكي عنا بلغة مفهومة.

يتقدم للحـديث حـالٌ بحجم كبيـر ولـون أسـود مزرّق، فتسُـلطّ عليه الكاميرات وعيون المتحلقين حولـه:

ـ أرجوكم لا تنعتونـا بالشـهداء، نحـن ضـحايا مغـدورون.. أنـا كنـت ذاهبـا إلـى السـوق لأشـتري الخبـز حينمـا سـمعت الـدويّ.. مزق أحشائًي انفجار هائل ولـم يبـقِ منـي سـوى هـذه القـدم التـي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أمامكم.. ربما تنتظرني زوجتي لأنني لم أعد لها بالخبز، أعتذر لها لأني لم أشهد ولادة طفلي الموعود، وأعتذر لأولادي لأني لم أكمل مشوارا يشهد تفاصيل حياتهم، ولابني الكبير في الخصوص لأنني لمَ أتمكن من حضور حفل تخرجه.. ترى، هل ما زال العشاء معداً في انتظاري؟

تزداد حركة فلاشات الموبايلات لأخذ الصور.. ورغم أن الحال الأول لا يمتلك عينين، تنزّ دمعة كبير منه قبل أن يخلي مكانه للحال الثاني، الذي يبدو بلون أخضر وتعتليه أشنات بحر وطحالب:

ـ سامحيني يا أمي، اضطررت إلى الرحيل نحو البحر، لم أودعك لأنني لم أقوَ على رؤية دموعك.. لا أريد أن أعرف كيف ستتلقين نبأ غرقي وكيف صرتُ طعاماً لأسماك قرش ضروس.. لم يجدوا على الشاطئ سوى كفي هذه، أريدها أن تكون فما لتقبّل رأسك.. هذا قدرنا، تورطنا في الحياة وفي الموت أيضاً.. أعتذر لأني لم أنج ولم يتحقق حلمي في الرحيل إلى شواطئ الغرباء حتى تلتحقي بي.. أقبل رأس والدي بشيبه المتكاثر وأخي الصغير، آسف لنكث وعدي بإرسال لعبة له من البلدان البعيدة.

تنشط حركة التصوير ويسجل البعض فيديوهات لينشرها على الفيس بوك.. تتقدم حال ثالثة ناعمة لون شفاهها أحمر، يشوبها مزيج من دماء قانية .

ـ معذرة حبيبي، أخلفت وعدي بمواصلة حياتنا مع بعضنا بعضا ورحلت رغما عني، كنت آتية اليك حسب موعدنا، لكنهمَ نصبوا لي كَمينا.. اختطفوني واغتصبوني وقطعّوا أوصالي ورموها عند المَزبلة.. أكلت الكلاب حبيبتك ليلاً ونجا رأسي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لكي يقول لك أني ما زلت أحبك، ولكي يوصيك ألاّ تحزن وألّا تلوم نفسك لأنك شجعتني على عدم ارتداء الحجاب.

تركّز كاميرات الموبايلات على طلاء الشفاه ولا يبالي المصورون بالدم.

بعد ذلك، تتقدم حال صغيرة لكي تشرح سبب وجودها بيننا:

ـ كنت أبيع أكياساً ومناديل ورقية عندما فتتّت جسمي النحيل عبوة ناسفة.. أعتذر للمعلم لأني لم أكمل واجبي المدرسي.. كنت أشتغل بعد المدرسة لأعيل أختي الصغيرة حتى لا تضربها زوجة أبي.. سأسمح لها أن تلعب بطائرتي الورقية المفضلة لكوني غير قادر على اللعب بها بعد اليوم، وبأني لا أستطيع أن أكبر وأصير طبيباً حتى أجلب لها ما تريد.

تعلو الساحة الكبيرة أسراب من طيور فواجع، ويهبط هواء أسود على مكان مهرجان الدم.. تنوس مخاوف باردة في نفوس الواقفين كلما تحكي حال قصتها، ويخشى الناس أن يأتي دورهم يوما ما، فيصبحون حالات حاكية.

كان في نيتنا إكمال المهرجان، غير أن جلدنا لم يعد طرياً لنرفع القبعات وننحني للتصفيق ولدقائق الحداد، إننا لا نريد أن نكون أرقاما لموتى في نشرات الصباح الإخبارية، ولا أن نغدو منشوراتً على صفحات التواصل الاجتماعي، ولا نريد أن تتعودوا على حكاياتنا وتقرأوا الفاتحة ثم تنسونا لاحقاً.

نقرر بعزم أن نتراصف ونغلظ لأجل ألا نبقى على قيد الذاكرة فحسب، لأجلنا ولأجلكم حتى لا يكون مصيركم مثلنا..

سترونا نتحول بغتة إلى قبضات غاضبة تلوّح بالوعيد يوماً ما.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

على مرمى ابتسامة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كنت أقود سيارتي في صبيحة مشرقة تسعدني بشمسها الطيبة، وأشهد أمامي وجه المدينة ناصعا نظيفا يزدهي بطرق معبدّة وأرصفة مبلطة وخالية من القمامًة، وًتكاد الشوارع تخلو من زحام واختناقات مرورية ونقاط تفتيش وضجيج.. أرى عابرين مبتسمين يغمرهم شعور بالأمان والرضا، يستنشقون هواءً نقيا لبغداد، وذلك ما يجعل صفة الأنوف الكبيرة للعراقيين معقًولة، بل ومبرّرة، طالما أنهم يسحبون عبرها أكبر كمية من هواء نقي، منبعث من أشجار ونباتات خضراء وحدائق بيوت خلتّ من ملاحق للإيجار وتصميمات سيئة مبالغ فيها، وحول تلك الدور ثمة حدائق غنّاء وملاعب حديثة للصغار، لا تقارن بتلك الحديدية القديمة، التي كانت تلسع بحرارتها مؤخرات الأطفال الناعمة وقت الظهيرة.. يغيب عن تقاطعات المرور شرطي عابس كان يوقف كل من يتجاوز على القانون، ثم يطلقه بعد أن يدسّ في جيبه مبلغا من المال، ويختفي أولئك الفتيان حاملو أكياس النايلون والمنادًيل الورقية والنساء اللاتي يستجدين، فأقود سيارتي وأنا أشعر بفخر واعتزاز، فتلك هي بلاد الرافدين بعراقتها، تجسّر بين حاضر مشرق وماض عتيد، ولا تكتفي بالتباهي والفخر بالماضي فحسب، بل تمضي في درب تطور الحضارات وتقدم التكنولوجيا، وفق جدول عريض من مشاريع عملاقة تنُجز بسواعد أبناء البلد أنفسهم، لم لا والعراقيون من أذكى شعوب العالم وأكثرهم تقبلاً للتجديد والتحضر .

أتوقف عند إحدى الدوائر الحكومية لتصديق وثيقة رسمية، وأرى موظفين مبتسمين على مكاتبهم، منشغلين بحواسبهم الإلكترونية الحديثة، يقدمون خدماتهم لمراجعين راضين من دون تسريب لرشوة أو لكلمة «تعال بعد أسبوع.. »أما على

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صعيد الدولة ورجالاتها فتتكرس جهودهم على خدمة ورفاه المواطنين والوطن، من غير التفكير بنهب ثروات البلاد واستغلال المناصب .

وبحلول منتصف الظهر، أدلف إلى شارع المكتبات لاقتناء بعض الكتب، وأرى إعلانات عن أماسٍ ثقافية، أفكّر بالذهاب إلى إحداها مساءً، رغم أن الاختيار صعب بين العديد من النشاطات الأدبية والفنية للبيوتات الثقافية ودور السينما والمسارح ومحافل العلم الواسعة الانتشار.. أعود إلى قيادة سيارتي وأنا ممتلئ بشعور حب الوطن، وأستمع من الراديو إلى أغان تحثّ على حب الحياة والعمل، وإلى الأخبار التي صارت أخف دماً وأكثر تفاؤلاً.

عند ملامسة شمس بغداد نهر دجلة، أدلف إلى أحد الأسواق المنزلية وأجد فيها منتجات عراقية غير مستوردة، وبعد التسوق، أقفل راجعا إلى البيت، يشعّ نور في داخلي وحولي، فالطاقة الكهربائيةً متوفرة وزائدة عن الحاجة، حتى أننا صرنا نصدّرها إلى دول الجوار.

وحينما أصل إلى البيت، أجد أولادي مجتمعين عند الحاسوب يتناقشون حول واجباتهم المدرسية، وتستقبلني أمهم وعلى ثغرها أجمل ابتسامة.. يأتي جاري ليخبرني بأن عائلة ابنه قد تركت بلاد المنافي وعزمت على الاستقرار في بغداد.. هذا هو العراق الجميل.. ما أروعه!

وعلى حين غرّة، وبين حالتي الصحو والنوم، أسمع صوتاً عالياً يشبه صوت مفخّخة، ليتضح لي لاحقاً بأنه صوت زوجتي:

«اصح أيها النائم، ألا تعلم بأن المولدّة فيها عطل، والنفط

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

خلص، وقنينة الغاز مغشوشة وفارغة، وبأننا نحتاج إلى خبز، والأولاد يتشاجرون ويواصلون اللعب وينسون الدراسة، والغبار غمر البيت، ولا مكان لمواد الحصّة التموينية، وقبل كل ذلك، قم بوضع صناديق الكتب تحت الفراش حتى أخزن كيس الطحين في المكتبة، و.»..

أفرك عيني في محاولة لاستيعاب ما يجري حولي من واقع خرِب.. وفي لمحة أخرى أستعيد حلمي فأبتسم.. ما أجملك يا بغداد ساعة كنت على مرمى ابتسامة في حلمي، وما أجمله من حلم، حلم منتصف ظهيرة صيف عراقي.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تنمية بشرية

منشورات «ألف باء AlfYaa»

في صبيحة غائمة تغري على المكوث في الفراش، أمدّ يدي إلى هاتفي الجوّال وأول ما أفعله هو قراءة برجي لهذا اليوم، ثم أكتب له تحية الصباح ولا أرسلها.. كنت أحسب يوم قابلته أول مرة بأنه الإنسان الذي كنت أنتظره من سنين، رغم عدم وجود تشابه بينه وبين الرجل المقدّر لي بالحظ.. ومهما كانت مآلات الأمور، فلا يمكنني التفكير ببطلان حدوث أمر مقّدر له أن يكون، ولا بخطل مفاهيم صلدة وراسخة في قناعاتي عن الطالع .

أعلم جيدا بأنني أحببته منذ أن وقع نظري عليه، وحتى قبل أن يمدّ يدًه المكتنزة ويصافحني، ومما زاد من سعادتي هو أن برجي تنبأ لي بالحب من النظرة الأولى، ولكن حين عرفت تاريخ ميلاده، عزمت على كبح مشاعري لأن برجي لا يتوافق مع برجه الناري، صاحب الشخصية المزاجية صعبة المراس.. ورغم تمنعي وردودي الباردة لفترة من الزمن، كنت ألمس من طرفه حبا ومشاعر رقيقة أضفت على روحي سكينة وعذوبة.. عشقته وتعوّدت عليه، وخلقت طقسي الخاص الذي يكون هو كل فصوله، فأبدأ فرحي اليومي بصباح الخير يكتبها مرفقة بأغنية، ووقت العصر بشاي يشربه معي عبر الهاتف، وقبل النوم، أختم يومي بتصبحين على خير حلوة مع أغنية.. بدأت أشك بأني لست من مواليد برجي المفترض، لأنني لم أكد أتخيل كيف ابتسم لي الحظ ووجدت من أحببت، وكيف أننا تبادلنا المحبة رغم عدم توافق برجينا.. صرتُ عاشقة لكل شيء فيه حتى اختلاف ذوقينا، أتقبل فكرة حبه لأكل خالٍ من الملح والتوابل، وأرتضي بتفضيله للشاي على القهوة، ولكني أسلمّ بصعوبة بفكرة كرهه لأغاني فيروز بحجة أنها تسبب له الكآبة، تخيلوا حياة بدون توابل وقهوة وفيروز، كيف يمكن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أن تكـون! ومـع ذلـك تواصـلت علاقتنـا ومـرتّ الأيـام حتـى لاحظـت تغيّـره، أصـبحتُ أرتعـب مـن فكـرة عـدم اهتمامـه بـي وابتسـار مشـاعره، وأنـه صـار يرسـل صـورا جـاهزة لـورود مكتوب عليها تحية الصباح بدل المكالمة الصَّباحية والأغنية، بينمـا أرسـل إليـه كلامـا جميـلاً منقـولاً عـن كتـاّب كبـار مثـل، «حبك مثل حقل من السنابِّل في زمن المجاعة والقحط»، غير أني أجده غير مهتم لما أبذل من جهد.. رحت أتابع ما ينُشر في مواقـع التنميـة البشـرية التـي رجحـت أنـه مـن أتبـاع نظريـة الصياد، الذي تغويه شغف مطاردة الفريسة وحين يوقعها في الفخ تفتر رغبته بها وينتقل إلى فريسة أخرى.. تزداد حيرتي وغيرتي وعذاباتي لكني بقيت أحبه وأرسل له الرسائل، ومثلما قال الشاعر، «أن تجد ألف سبب للرحيل ولكنك تبقى»، ولفرط مـا أحببتـه، فضّـلت عدم معرفـة الحقيقـة والاحتفـاظ بأوهـامي.. كان لابدّ لي من الاستعانة بفيديوهات التنمية البشرية كل يوم، فاسـتنتجت بـأن خبـراء العلاقـات الشخصـية يجُمعـون علـى الطريقة المثلى لاسترداد من تحب، وهي تجاهله وعدم الرد على مراسلاته، حتى يأتي متضرعا ونادما ويخرّ أمامك راكعا على ركبتيه، حفظت عن ظهر قلبً نصـائحًهم: «التخلـيّ تجلـيً، وأن الإفـراط فـي العطـاء يفسـد العلاقـة، والشـيء الوحيـد الـذي يجعلـه يعـود اليـك، بـل ويجـري وراءك، هـو تركـه وإهمالـه، سيشعر آنذاك بأنه أخطأ بالرحيل عنك، وبأن بقاءك معه أصبح غيـر مضـمون كمـا كـان يتصـور.. تأكـدي أنـه سـيرجع إليـك صاغرا معتذرا نادما خلال أربعة عشر يوما».. أما برجي، فقد نصًحني بًألّا ألاحًقه وألّا أجعل نفسي متًاحة له طوال الوقت ولا أشعره بتعلقي الشديد، لأن اللحظة التي نتوقف فيها عن ملاحقة شيء ما، فهي اللحظة التي نجده فيها، وفرط الاهتمام

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بالطرف الآخر يجعله غير مبالٍ وغير قابل للاستدامة، وبمقابل ذلك، ينبغي أن أكون سعيدة وأتنفس بعمق، وأن أحب نفسي وأحضنها ثلاث مرّات باليوم، لأن حب الذات سيشعرني بالراحة والفرح، فلا شيء يؤذينا كما أفكارنا، ولا شيء يشفينا أيضا سواها.. ولتلك الأسباب رحت أهمله وأعدّ الأيام، وأحرص عَلى حضن نفسي أكثر من ثلاث مرّات في اليوم الوحد، وأزيد من قراءة ما يكتبه أخصائيو التنمية البشرية الذين تنبؤوا بأنه سيعود لي بعد أربعة عشر يوم من الإهمال.. ورغم كل هذا فأن الموعد انقضى ولم يتصل أو يكتب لي كلمة واحدة.

وها هو المساء قد حّلّ، سأحضن روحي ثلاث مرات قبل النوم وأدعو أن أسمع منه، بعد أشهر صمت طويلة متعبة.. سأقرأ برجي لأعرف ما تضمره لي الأيام من الناحية العاطفية، ثم سأكتب له تحية المساء ولا أرسلها.. أنا واثقة بأنه سيعود بقلبه الدافئ وظله العالي مهما طال الزمن، لأن علم التنمية البشرية والأبراج لا يخطئان كما أعتقد.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مكتوب في الغيب

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لأول وهلة، بدا الأمر كمزحة بريئة للتسلية، غير أن ما حدث بعد دخولها تلك الخيمة، سيبقي في بالها وسيغيّر حياتها بالكامل.

بعد إلحاح متكرر من زميلتها في العمل، توافق سُرى على مرافقة زميلة لها في العمل إلى داخل خيمة صغيرة ضمن سيرك موسمي حّلّ في حديقة بالقرب من مكان عملها.. تقرأ عند المدخل لافتة مكتوبة بخط عريض:

«قراءة الكف ومعرفة البخت.. أمر عادي أن يصادفك كثير من الأحزان في حياتك، أنا من يمتلك الحلول لها، أتنبأ بما يحدث لك عندما أقرأ ما هو مكتوب على راحتك من خطوط قدرية.. أتنبأ بما ينتظرك فيما يخص العمل، المال، الحب، ستعرف كل ذلك لما تقابلني.»

تسحب الزميلة يدها وتجلسها أمام العرّافة، تكتم سُرى ضحكة في سرّها غير مصدقة بأنها استجابت لما يجري، فهي لا تؤمن بقراءة الطالع، بل وتعتبرها من الخزعبلات التي لا يصدقها سوى الجهلاء والحمقى واليائسين.

وفي أجواء من الترقب والريبة، تنظر المرأة الغجرية إلى عينيها نظرات ذات مغزى، تمسك بكفها وتهمس، «خط العمر طويل وممتد مع خط الحب، ستقابلين فتى أحلامك قريبا، وسيكون أول حرف من اسمه هو «ز»، ستلتقين به أول مرّة صًدفة في نادٍ رياضي، وفي المرة الثانية ستصادفينه مرتديا ملابس رياضية بلون أخضر في الطريق الذي تركضين فيه، وسًيبتسم لك، في المرة الثالثة ستقابلينه في حفلة عند صديقتك، وسوف يتكلم معك ويبدي إعجابه بك.. أنصح أن تبادليه نفس

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الشعور لأن هذا الشخص هو نصيبك وقدرك، فلا ترفضي حبه.»

تهزّ سُرى رأسها متظاهرة بالموافقة وتحاول إخفاء ضحكتها، ويخطر في البال والدتها يوم كانت تقرأ ما يخلّفّه البنّ على الفنجان بعد شرب القهوة، «هناك طير قادم يحمل رسالة، وسمكة تبشر برزق قريب، وفي الأعلى يوجد ثعبان، قد يكون عدوا يحاول النيل من صاحبة الفنجان»، تسألها عن حقيقة الأمر، تجّيبها ضاحكة بأنها تتسلى فحسب.

في اليوم التالي، وأثناء تحولها من جهاز إلى آخر في النادي الرياضي، يصدف وأن تصطدم بشخص وتسقط قارورتها على الأرض، يجلبها الرجل وعلى ثغره ابتسامة ذات معنى، تشكره وتتذكر قول العرافة، إلّا إنها تنفي فكرة القدر والنصيب، فتلك صدفة تحدث في النوادي الرياضية، وسرعان ما تنسى الموضوع.

عند حافة النهر، وفي عطلة نهاية الأسبوع، كانت سُرى تركض حينما أبصرت فجأة نفس الشخص الذي التقط قارورة الماء، يركض أمامها، ولدهشتها، كان يرتدي ملابس رياضية بلون أخضر كما ذكرت لها العرّافة.. تلتفلت إلى الوراء بذهول، فتراه يبتسم لها.

تتفاجأ في حفلة عيد ميلاد عندما يتقدم نحوها مبتسماً محيّيا، لم تصدق عينيها، تندّ عنها صرخة دهشة، تلتفت نحو زميلتهًا مستفسرة منفعلة هامسة، «هو نفسه».. تعلم منها أنه موظف معهم في الشركة منذ فترة قصيرة واسمه زكريا، تتعرف عليه، تحكي معه، تلمح بريقا محبّبا في عينيه، تكثر لقاءاتهما بعد ذلك ثم تتطور علاقتهماً فتتعلقً به.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بعد موافقتها، يتقدم الشاب لخطبتها، وقبل أن يذهب إلى بيتها، يمرّ على زميلتيهما في العمل ويقدم لها باقة ورد كبيرة وبطاقة شكر على تخطيطها وجهدها معه، ثم يعرّج نحو الحديقة التي فيها السيرك، ويدخل إلى غرفة العرّافة، يصافحها، يغمز لها بعينه ويشكرها على تعاونها معه، ثم يسلمها مظروفا فيه مبلغ من المال.. تقبّل المرأة النقود وتبتسم لأن مهمَّتها نجحت في «جمع رأسين» بالحلال، تتنهد قائلة، «كله مكتوب في الغيب.»

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شيزوفرينيا عاطفية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أتركها جالسة في الصالة وأحاول متعمدا التمهل في تهيئة القهوة، بقصد البقاء بعيدا عنها لأطول فَترة ممكنة.. أحاول عامدا تجنبها، أتعامل معَها بفتور سخيف، وأسعى جاهدا إلى إسَاءة التصرف معها حتى تضجر مني.. أستنكر مشاعرَيَ تلك وأضطر إلى رسم ابتسامة متكلفة على شفتي في محاولة لإقناع نفسي بأني سعيد، ولماذا لا أكون سعيدا؟ ها هي الامرأة التي تحبني وأحبها معي وفي بيتي.. غير أني لا أعرف لماذا يتملكني بقوة ذلك الإحساس الغريب وتلك الأمنية الملحّة في أن تغادر سريعاً.. ها هي اليوم عندي، في بيتي، تجلس في الصالة، تختفي كل صفات محببة لها بنظري، وتتمثلّ أمامي كل مساوئها وأولها فلسفتها، «الحياة لا تتطلب التحليل والعمق يا هادي، والتفاهة هي أكثر ما تلائم مجريات عصرنا حتى يكون عالمنا أقّلّ إيلاما.. طالما أن الأمور ستجري رغما عن إرادتنا، فلماذا نجهد أنفسَنا بالتعمق والسؤال، ألا تتفقً معي على أن الحزن هو محرقة للوقت المحدود على هذه الأرض وإهدار عابث لوجودنا الصغير؟»، وها هي تسخر مني، «ها أنت قطعتَ شوطا من عمرك تبحث وتسأل، وبقيتَ على حدود الـ لماذا والتساؤلات، وحين ستلتفت إلى الوراء، لن تجد ما يشفي غليلك من الأجوبة، والحصيلة محض قلق وإتلاف للحياة».. عاهدت نفسي، بأن أكون كما تريد عندما تأتي، كائناً خفيفا طريفا، وافقتها على مضض حين قالت، «لا جدوى من المَعرفة الًعميقة ما دام سلوك البشر عدوانياً والشر يسود العالم، لا يكفي أن تعرف الواقع وتشير بإصبعك نحو سلبياته في الوقت الذي لا تملك القدرة على تغييره.»

أستحضر قولها بانقباض، «تمسك يا هادي في حب الأشياء التي تجعلك سعيدا، اغتبط قدر ما تستطيع، انشغل بشيء مسلٍ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كالسفر والطعامَ اللذيذ والأغاني الخفيفة المرحة، شاهد أفلاما بسيطة وطريفة، ودع عنك الشجو المغرق بالوجع.. »أحسبهًا تلجأ إلى التسطيح وليس للتبسيط.. كثيرون يتساقطون من أعيننا عندما نتعمق في تفاصيلهم، هل لأن من نتعمق في تفاصيله يسقط من أعيننا ويغدو عاديا وغير مثير؟.. الآن عرفت لماذا سمي القلب بذلك الاسم، ربمًا لأنه يتقلب بين ساعة وأخرى.. أرى أنه من الأسلم البقاء على تخوم العلاقة.. أقدّم لها القهوة وأنا متجهم وأوشك على الصراخ، بل تنتابني رغبة طاغية في مغادرة البيت وأنا مضيفها .

لكن وهي بعيدة غائبة، أفتقدها وأتوق إلى رؤيتها بقوة، أتذكرها في كل حدث كبير وصغير، في تفاصيل صغيرة عابرة وأخرى مهمة، في كل أغنية وكل لحن.. أحتفظ بكأس شربت به الماء آخر مرة وعليه آثار من قلم أصباغ شفتيها، أحافظ على منشفة مسحت بها يديها فلا أغسلها، أبقي نعلاً ركنته قرب الباب قبل أن تغادر، أترك كرسياً جلست عليه فارغا، أجلس قبالته وأتحسر، أتحسس مكانا على الكنبة تمددتً عليه متثائبة بمرح، وأحتضن وسادة اتكًأت عليها.. يبقى قلبي معلقّاً بملاقط الصبر على حبال انتظارها، أتطلع إلى صورها، ينسّلّ دمع فرح من عيني، أرنو إلى ابتسامة عينيها وأصبو إلى ضوئهما، أستمد نور عيني من زيت حبها، يخلفّ حنيني إليها حشرجة في روحي وغصّة في مكان غائر في داخلي، يجذب رحيق حديثها فراش بهجتي ويسعد أساريري، أحسبها أقرب إليّ من شغاف قلبي.. أنتظر مكالمتها الفرح كل يوم، فيتسّم يومي بثلاث حالات، حالة انتظار الفرح وحالة الفرح وحالة تذكر الفرح، أطمئن عليها وأطمئن بها.. تعيش مليكتي في أفكاري كل لحظة، أناجيها، أتحدث إليها، أشعر بأني ناقص من

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

دونها، فيأتي خيالها ليكمّلني، حين يغادر ظلّها، أتلمس جسدي لأرى أي جزء فقدت منه، غيابها مثل غياب حرف القاف عن القمر، ورحيل ضوئها عني يخلفّ هواء باهتاً غير وامضٍ، فأحتاج إلى كل الهواء وكل الضوء وكل الزهر وكل الاخضرار حتى آخر خصلة للعشب .

حبيبتي حقيبة مسرّات ومعنى سعادة وجوهر فرح، تسكب شيئا من الشمس على جسدي البارد، وشيئا من القمر على مزاجي القاتم، آتيها بالسماء لو تطلب مني نجَمة، وببستان لو ترغب بوردة، فبدون حبها لا جدوى ولا معنى لأي شيء، يكفي أن أسمع منها قول، «كيف كان يومك يا هادي»، تلك الجملة والنغمة تجعلني سعيدا لعمر، ألا يكفي أن يسألك شخص عن يومك؟ حديثي إليها سجّادة حرير أنفض عنها متاعب يومي، أحكي لها كل ما جرى في أوقاتي.. أحاول تجاهل عدم اكتراثها ولا مبالاتها، لأن تضاريس حياتي حقاً ثقيلة ومملة، وغالبا ما أكون محفوظا ومعلبّا وقابلاً للتحميض والتجفيف في علبً الماضي، وربما أكون مقَّبلاً على التعفن .لمّا أخبرتني بأنها آتية، وقبل أن تصل، كنت أنفض وحدتي وأنزع عنيّ جلد العزلة لأتجدد، خيّل اليّ بأني شاب خفيف متنصل من كل متاعب الحياة، انفتحَ على جهاته كلها وتلونت رؤاه.. أروح منشغلاً بترتيب نفسي وما حولي، أتسوق كل ما يعجبها وما تشتهيه.. غير أني لا أستطيع فهم نفسي وأسباب نفوري حينما تحضر، واشتياقي لها حينما تغيب، وترقبّي لظلها وهي تغادرني، ولا أعرف كيف سينتهي كل هذا ومتى، لا أظنني أقدر على تلك الحالة، أن أحبها وأكرهها بنفس الوقت، عليّ أن أختار بين الوحدة من دونها وبين الشعور بأني وحيد في وجودها، فأنا لا أحتمل بعدها عني وفي الوقت نفسه لا أحتمل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وجودها بقربي.. وكأن أنا آخر يسكنني، فهل من المعقول أن أحمل شعورا متناقضا مزدوجاً تجاه نفس الإنسان، وهل أنا في المنتصف ألمميت عَندما لا أستطيع أن أقترب ولا أستطيع أن أنسى وأتجاوز؟

في ذلك المساء البائس، طلبتُ منها الرحيل مع تفسير سخيف، وهو حتى أبقى أحبها، غير أنها لبثت صامتة لبرهة، وعندما خرجت، صفقت الباب خلفها وتفوهتْ بكلام كثير أتذكر بعضاً منه، «مريض.. مجنون.. لن تراني».....

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أورثوركسيا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تجول عيناي في المكان أثناء جلوسي في غرفة الانتظار، تلك هي المرة الثانية التي أزور فيها عيادة الطبيب منذ فترة طويلة لكوني أتجنب اقتناء الأدوية وكل ما يتعلق بالكيمياء والصيدلة.. وكم كانت دهشتي كبيرة حينما أخبرني بوجوب عمل رسم أشعة لرأسي، وأن أجلس في غرفة الانتظار لمعرفة نتيجة ما بي من أعراض أوجاع وحالات فقدان ذاكرة.. أحاول جهدي للتنقيب في أسباب ما أعانيه، فيأتي شريط يومي أمامي حافلاً بكل ما هو صحّي وسليم.

أصحو من نومي باكرا، أفتح نوافذ شقتي كلها لتغيير الهواء، وأمارس عملية الشهِّيق والزفير لمدة خمس دقائق، بعد ذلك أبدأ بممارسة تمارين رياضية مخصصة لكل جزء في بدني، أفرّش أسناني بعد شرب قدح من الماء مع نقطتين من الليمون، وأبدأ بتحضير فطوري المنوّع الذي أستهله ببعض الخضار العضوية أو عصيرها، أمضغها ببطء وتأن.. أتناول بعض المكمّلات الغذائية الصباحية كفيتامين دي وكيْ وبي، ثم أبدأ مشوار المشي لمدة خمس وأربعين دقيقة، وعند رجوعي، أجهّز الخضار وأعقّمها لفترة الغداء وأسلقها بالبخار، أستمع أثناءها إلى بعض المحاضرات الطبية وتلك التي تخصّ التغذية، ولشدّ ما يقلقني هو أن تكون بعض الدراسات متناقضة، تنفي بعضها الآخر.. أمارس تمارين التأمل، وأحاول أخذ أكبر قدر من أشعة الشمس إن كانت متوفرة قبل الوجبة، ولا أنسى تناول حبوب البكتريا النافعة وبعض الأنزيمات التي تساعد على الهضم، وبعد غسل الصحون وتنظيف المطبخ، أخرج مرة أخرى للمشي لمدة خمس وأربعين دقيقة أخرى.. أرجع بعد ذلك وأهيئ لي وجبة خفيفة من لبن عضوي مخلوط معه بعض البذور الصحية والمنبّتة، وأنتهي من الطعام عند

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الساعة السادسة فأصوم عن الأكل حتى اليوم التالي، وأحاول النوم مبكرا لمدة سبع ساعات متواصلة بعد أن أضع بضع قطرات للعَيون وآخذ حبوب الماغنيسيوم والزنك والبوتاسيوم.. أقلق كثيرا لو لم أنّفّذ كل التفاصيل التي تتعلق بالصحة والتغذية فأحاولً تعلم اليوغا وبعض تمارين الاسترخاء لأتخلص من القلق، الذي هو السبب الرئيسي لكل الأمراض، ثم أخلد إلى مهجعي النظيف المعقم والمعطر ولا أنسى أن أفتح جهاز محسّن الهواء، وجهازا آخر يضفي رطوبة متوسطة على أجواء غرفة النوم، لأنام بعمَق بعد ذلك وينتهي يومي بسلام.. ليس لديّ وقت لمشاهدة التلفزيون أو للتواصل في الحياة الاجتماعية، فعندي ما يكفيني لأملأ به ساعات يومي.

أصُاب بذهول وبصدمة بالغة حين يخبرني الطبيب عن نتيجة غير مطمئنة للأشعة، فقد وجد في الرأس ثمة توسع للمادة البيضاء وأن دماغي في حالة ضمور غير طبيعي، وبدا غير متأكد من وجود ورم غير طبيعي فيه، والحالة هذه ستتطلب الكثير من الفحوصات والمراجعات.. كيف حصل ذلك؟ أكاد لا أصدّق، لست أنا من يحدث له ذلك، أنا من كنت أحرم نفسي من كل الطيبات والحلويات والطعام غير الصحي، وأبتعد عن علاقات اجتماعية مع أصدقاء، ظنّاً مني بأن صحتي ستكون أفضل.

أجد نفسي مضطرا إلى الاتصال بصديق قريب لإخباره بما حصل لي.. أذهب إلىً حانة قريبة للقائه وأحكي له شكواي، لم يأت صديقي بأي رد فعل وأقصى ما فعله هو أن طلب لكلينا شطائر لحم مقدد وقنينتي مشروبات غازية فيها نسبة من السكّر، وبالتالي صار يضحك عندما بان قلقي على وجهي وقال كلمات مازالت ترّن في سمعي، «يا أخي كُلْ ما يحلو لك

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

باعتدال، صاحِب واستأنس بأصدقائك ومحيطك الاجتماعي، تمرد على روتينك الصحي، فكلنا زائلون وسنذهب إلى الموت يوما ما، مع الفارق أنك ستذهب اليه بصحة سليمة دون أن تستمتع بحياتك، أما أنا فقد عشت حياة فوضوية تخلو من القلق واتبّاع أنظمة غذائية، ومع ذلك سيرحّب بي الموت أيضا كيفما كنت بعد أن رحّبتُ أنا بالحياة».. كان بودي أن أسأله، أيهما أفضل، حياة صحية خالية من المتع أم حياة ممتعة لكنها خالية من الصحة؟ غير أني تركت الكلام وانشغلت بمضغ الشطائر اللذيذة وشرب المياه الغازية .

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يوم في حياة ظل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ستنزلُ يا عبد الصاحب من غرفتكَ وتنطقُ بشكل أوتوماتيكي بارد، «صباح الخير» ثم تتوجه مباشرة إلى غرفة الجلوس.. أردتُ إخبارك عن عطل سخان الحمام وعن استحقاق دفع قائمة الكهرباء، لكني سرعان ما أحجمت.. قبل أن أخرج للتسوق، مددتُ عنقي نحو غرفة الجلوس فوجدتكُ جالساً تتفرج على فيلم عربي بالأبيض والأسود كما عادتك، أردت استفزازك فسألتك إن كنت تحتاج إلى شيء ما من الأسواق، أشرتّ لي بيدك نافيا دون أن تكلفّ نفسك عناء الكلام، ولم ترفع نظرك عن التلفَّزيون .

أتمشى في الأسواق وأتطلع إلى بضائع متنوعة عديدة وإلى زيادة الأسعار، مازلت أعتمد على نفسي في التسوق إذ كنتَ لا تطيق الذهاب إلى السوق معي أو حتى الخروج من باب الدار، وإن اضطررتَ إلى ذلك بسبب مرضي أو غيابي، تجلب بسرعة ما تريده دون مقارنة الأسعار أو ملاحظة الجودة، لتعود سريعا وتجلس أمام التلفزيون.. كم تمنيت أن نخرج سوية في نزَهة أو إلى سهرة عشاء في مطعم، أو أن تبادلني أطراف الحديث وأسمع صوتا أحاوره غير نفسي، غير أنك لم تفعلها يوماً وحتى قبل أن تتقَّاعد في سن مبكر.. لو تعرف كم ارتفعت أسعار الطماطم! ها قد تغيرت الأوضاع بعد فرض ضرائب على كل ما هو مستورد وما بعد كورونا.. كنتَ تخشى الخروج من البيت بسبب تفشي هذا الفايروس، وفي الحقيقة قبل ذلك بكثير.. كم أخبرتك عن مضار الجلوس أمام شاشة التلفزيون وإدمانها، لم تكن تسمعني.. ها هو موسم الباذنجان، سأعمل منه مرقا مع الرز، أو ربما سأشويه، لكن أعرف أنك تحب الباذنجان، ولهَّذا سوف لن أشتريه نكاية بك يا عبد الصاحب.. أتعلمُ ما هو أكثر إحساس أشعر به نحوك؟ الشفقة،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نعم الشفقة، لا عزاء لك، أشفق عليك لمّا أفكّر أن عمرك يمرّ دون أن تحيا، فأنت لم تحب، لم تحلم، لم تضحك من قلبك، لم تبكِ ولم يكن لديك أي شغف، تجمدتْ حياتك في انتظار النهاية، غدوت كظل من غير شمس، ليس له وجود.. كان لصديقتي زوج يشبهك على نحو ما، انفصلت عنه بعد يوم من عملية أجرتها لاستئصال المرارة.. كم حاولتُ مجاراتك في نمط حياتك، لكني فشلت، جلستُ ساعة كاملة وأنا أشاهد معك فيلم قديم لممثلين كلهم أموات، أتساءل، ما لذة أن تجلس صامتا وتتابع أفلاما مُعادة؟ لا علم لي.. حاولت تسجيلك معي في دَورة تدريبيةً لتعلم مهارة جديدة، غير أنك استنكرت ورفضت الحضور، دعوتُ جيراننا على سهرة عشاء، لم تجاملهم بكلمة واحدة، وتركتني وحدي معهم حتى لا يفوتك الفيلم.. منذ زمن، لازمني هاجس في أن أغيّر طباعك ونمط حياتك، وفي كل مرةّ كان سقف توقعاتي يرتفع إلى حد ما، ثم يخيب أملي بسبب تصرفاتك أحيانا، ما جدوى المحاولة مرة أخرى إن كان من هو أمامك مثل عَشب ضار، كلما تجتثه، تمتد جذوره في الأرض وينبت مُجدداً؟ عندما أزهق من وجودك معي في الدار وأنت لا تشاركني في شيء، أخرج وآتي إلى هذا المطعم وأتناول فيه وجبتي بمفردي.. ..أرى بجانب مطعمي المفضّل محل حلاقة جديد.. كنت أحلق لك شعرك حتى لا ندفع ثمن الحلاقة، حتى أتى عليّ يوم وأهملتك، ففضّلتَ أن يبقى شعرك طويلاً.. يبدو أن أسعار الحلاقة قد ارتفعت إلى حد لا يصدّق، أسفت لأنني لم أشتغل في إحدى الصالونات بعد تخرجي من دورة الحلاقة، أنت من منعني يا عبد الصاحب، كنت تريد أن أبقى في البيت كظل مهمل لك.. سأرجع إلى الأسواق لأنني نسيت أن أشتري البيض.. في فترة الإعلانات، تهرع إلى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المطبخ وتقلي لك بيضة وتذهب إلى الصالة لتتناولها أمام الشاشة دون أن تنظر إلى الصحن، وإن لم تجد بيضا، تأكل أي شيء موجود في الثلاجة، تلك هي رياضتك الوحيدةً داخل الدار.. هذا المحل يعرض على واجهته إعلانات سفر إلى أماكن ساحرة ومشمسة، لا أذكر آخر مرةّ سافرنا فيها معا رغم حبي الشديد للرحلات وتغيير المكان.. كم أتمنى أن أكًون طائرا أو ظلاً له، أطير إلى أبعد بقعة في أرض تختفي فيها تلك المرًارة التي في داخلي وتضمحل الذكريات.. سأدخل لأرى ما فيه من عروض السفر. رجعت عصرا إلى البيت فوجدتك في مكانك، «مساء الخير»، لم تجبنيً كعادتك وكأنك لم تسمعني، في الوقت الذي يكون سمعك وبصرك مثبّتين في الشاشة.. خطرت في بالي فكرة سكب ماء على التلفزيون لإعطابه، غير أني أحجمت عن فعل ذلك.. كم صارت تلحّ عليّ كلمات تلخّص حالي، أما أن تصاحب خير صاحب، أو تبقى من غير صاحب! لم تكن صاحبي يوما يا عبد الصاحب رغم أننا نعيش تحت سقف واحد.. صعدتً إلى غرفتي وأول ما فعلته هو إنزال حقيبة السفر من فوق الدولاب.

كنت قد وضعت إصبعي على أحد الإعلانات في مكتب السفر وحجزت رحلة.. سأسافر، نعم سأسافر وسأتركك بمفردك يا عبد الصاحب.. سأرحل بعيدا، لا أدري إلى أي مكان، صحرا إن كان أو بستان، غير مهم.. وأن رجعت، أتمنى أن أجدك يا عبد الصاحب، ظلاً متحجراً أمام الشاشة في جانب مظلم من صالة الدار .

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ظل محني

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في مثل ذلك الموقف الذي مررت به، كان من المنطقي والطبيعي جدا أن أغضب أو أشرع في البكاء، أو ربما أطلق العنان لمشاعرً أخرى تشبه البراكين في ثوراتها، هذا إذا لم أفكر بالانتحار فورا، ومع ذلك، ولدهشتي، أجد نفسي أقرب إلى الهدوء واللامبالًاة منها إلى الصراخ والعويل، والأغرب من ذلك كله، أجد قدميّ تقوداني إلى البارك القريب .

أجلس على مصطبة رطبة، أرى ظلي منحنيا ومكسوراً على الأرض، أتطلع حولي.. متنزه لاعبت أشجاره رياًح خريفية رعناء، أوراق شاحبة تساقطت على أرض ندية إثر مطر صباحي خفيف، بالكاد يكوّن بركة ماء شحيحة في حفرة على الأرض.. تجلس سيدة شابة على مصطبة قريبة، تبدو منهمكة مع هاتفها وبجانبها عربة فيها طفل نائم.. كيف تكون الحياة بوجود طفل في الأسرة، لا أعلم، لم أجرّب الإنجاب، فكرت بتبني طفل، أو اقتناء قطة، لكنه عارض ومانعَ، لم يكن يحب الأطفال ولا القطط.. في بيتنا القديم هناك كان لنا قط اسمه «سمسم»، وكانت هناك حديقة وفيها ورود وأشجار نارنج، تبدو في ذهني اليوم كطيف بعيد وحلم عتيق.. «بيت الحبيب ما أجمله، خضر الغصون تظلله».. شيء ما، غير الانتقام جعل هذا الضجيج الذي في داخلي يتبلد، كلنا نتخذ قرارات خاطئة في الحياة لكن الصعوبة تكمن في أن نتعايش معها.. كيف يمكن للمرء بعد أن يرتكب خطأ ما أن يواصل العيش؟ وبالمثل، من الحماقة اتخاذ قرارات مصيرية بعد كل خسارة.. يصدر صوت رفيع لبكاء الطفل في العربة، ومن على المصطبة المجاورة، تضع السيدة الشابة في فمه قنينة حليب وترجع إلى هاتفها.. أشعر بالجوع، كما أشعر بالحاجة إلى التبول، الرغبة بالأكل وتفريغ مخلفات الكليتين، تطغيان

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

على رغبتي في الغناء راهنا، ومع ذلك سأغني، «يا جارة الوادي طربت، وعادني ما يشَّبه الأحلام من ذكراك».. من لا يأنس بذاته لا يأنس بشيء آخر، أما الوعي فإنه يضر صاحبه قطعا، فكلما زاد الغباء زادت السعادة، فالحمقى والأغبياء هم وَحدهم السعداء في هذا العالم.. كل ما في الوجود هو في حالة استرخاء ما عدا الإنسان، يعيش قلقا مضطربا ويغدو ضحية لعقله، أكاد أجزم بأن تلك الكتلة الدَّهنية الَّمعقدة والمحيرة في الرأس، وذلك الجهاز الجبّار المسيطر على الجسد، هو في الواقع كيان الإنسان الحقيقي، وما الجسد إلّا وعاء للحفاظ عليه، فهو الآمر الناهي والملهم الذي لا يكف عن الثرثرة.. اللعنة عليه، يجعلني أشطّ من فكرة إلى أخرى .

لا تلبث أوراق الشجر تتساقط بفعل الريح، الطفل ما يزال غافياً وأمّه أو جليسته بمعطفها الخردلي، لاتزال منهمكة بالقراءة من الهاتف، لم أفكر يوما باقتناء معطف بمثل هذا اللون، ألبس معاطف سوداء على اَلغالب.. لا أتذكر من كتب هذه الجمل الشعرية، «يمتلأ قلبي باللون الأسود والجثث كما تربة الوطن»، «قلبي معلّق بملاقط الصبر على حبال الانتظار».. أنىّ لي أن أنتشل نفسي من أنقاض الحزن لأرى هل ما زلت على قيد الحياة؟ عبث هي الحياة، نجهد أنفسنا في سكب مائها في فخار لم نحسبه مكسوراً، كل ما عشت من أجله ما كان سوى وهم وبلا معنى، أحاول توزيع النسيان والتصبر على كل أجزائي لأن قلبي لا يحتمل كل ذلك.. كم تمنيت أن يكون بين يديّ اللحظة كيس تغليف بلاستيكي حتى أفرقع فقاعاته، عّلّ ذلك يساعدني على تشتيت ذهني عن الأفكار السلبية ويقلّ توتري.

طلعتْ قليلاً لتثبت وجودها، شمس شاحبة باردة، أقف فأرى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ظلي محنيا وقاتما، كيف أسأل الشمس عن جدوى ظلال تتبعنا؟ لكن يوجدً التفسًير الفلسفي للظل حيث يقول (يونغ) بأنه الجانب غير المرئي من شخصيتنا، حيث تخُزن المشاعر والرغبات التي قمعها المجتمع، أو التي نرفض الاعتراف بها، وقد يكون هو السبب وراء قرارات غير مفهومة نتخذها أو مشاعر سلبية تسيطر علينا دون سبب واضح.

ما تزال السيدة الشابة مشغولة مع هاتفها والطفل راقد في عربته.. أوراق الشجر الصفراء تتبعثر من جديد على الأرض وتجري برعب خشية من مطاردة الرياح الخريفية.. لا أدري أيهما أفضل، أكاذيب مريحة أم حقائق متعبة؟.. أدركتُ للتو بأن التضحية الطويلة واللامثمرة تنتج قلوبا من حجر.. سأمسك قلبي من ياقته وأعيد ترتيبه حتى أتمكنً من تعديل انحناء ظلي.. ينبغي أن أقف شامخة فأنا لست أول امرأة تكتشف بأن شريك حياتها يخونها مع صديقتها، لكن التغافل عن الإساءة لبقاء الود، هو بذاته إساءة للنفس.. أمامي طريق طويل وعسير عليّ سيره بصلابة.. «لا بد أن نسير، ونجرف الأحجار من طريقنا الكبير»، سيحصل هذا الأمر ولكن بعد أن أجد أقرب حمام أفرّغ فيه مثانتي، ثم أعرّج على الكافيه وأشتري أحلى شطيرة وأطيب شراب.. لننسى متاعب وأخطاء الماضي، ثم نبدأ بارتكاب أخطاء جديدة، ما هذه الضحكة الباهتة! عليّ أن أضحك بقوة أكبر على طرفة الحياة هذه..

من الطبيعي أن تكون الحياة غير عادلة ومع ذلك فهي جميلة.

الجو بارد، الخذلان بارد، الخيبة باردة، والروح برودتها أقسى من برودة الجسد.. أتلفع بشالي وألتفت نحو المتنزه، أرى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

من بعيد امرأة منهمكة مع هاتفها وبقرب مصطبتها عربة طفل.. تتدحرج بين قدمي أوراق شاحبة مرتعبة من ريح خريفية باردة.. أستقيم وأثبّت بصري على الأرض لأختبر ظلي، لكن ثقل رأسي يخذلني، مثلما يخذلني حلول غسق قاتم.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شكراً لظلّكم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أسعدني الحظ هذا اليوم وأنا أقود سيارتي خلف سيارة عضو المجلس البلدي الذي أوعز بتبليط شارعنا في حي المائة ميل.. كم كان سروري عظيماً لما فعله هذا المسؤول بعد أن تعبنا من الوحل وتصليح سياراتنا، وبعد أن مللنا من كتابة العرائض والمطالبات لمدة تزيد عن عشر سنوات بدون جدوى.. استبشرنا خيرا حين رأينا بأمّ أعيننا الجرافات والمكائن تهيئ الطريق للتعبيَّد والتزفيت وشممنا بعد ذلك رائحة القار، يومها عمتّ الأفراح وازدانت الأجواء بالزينة وعلت الأهازيج والتبريكات.

يقع حيّنا في منطقة حديثة، ورغم كثرة البنايات والساكنين، غير أن الطريق الرئيسي ظّلّ وعراً يفيض بالوحول شتاءً، وتنتشر فيه المنخفضات والمطبات صيفاً، لكن ها قد حّلّ اليوم الذي كنا ننتظره وانتهت الأعمال، ونحن في انتظار حضور السيد المسؤول لقصّ الشريط وافتتاح الشارع المعبّد.. كنت قد سهرت الليلة الماضية وأنا أعدّ كلمة شكر له وأدبجّ أسمى آيات العرفان والامتنان، وقد حرصت على أن تتضمن كلمتي جملاً خطابية وحركات تمثيلية، لتعزيز وقعها على الضيوف والحاضرين.. أتذكر كيف خطبت يومها قائلاً، «نيابة عن أهل حيّنا، أقدّم لسيادتكم أخلص عبارات الشكر والامتنان، من قلب يفيض بالاحترام والتقدير لما بذلتموه من جهد في إعادة الحياة إلى حيّنا، حفظكم الباري و، »..ولكن السيد المسؤول يومها، لم يستمع جيدا إلى كلمتي لأنه تعجّل بالدخول إلى سيارته وبالانصراف، وأظنَّ، بل أنا متأكد من أن سبب مقاطعته لكلمتي هو كثرة انشغالاته.

قررت في اليوم التالي الذهاب إلى مكان عمله لأسمعه كلمات الشكر، فأنا على يقين بأن كلمتي في المرة السابقة كانت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

غير كاملة ولم تسنح لي الظروف تبيّان فصاحتها.. استأذنت بالدخول إلى مكتب السيد المسؤول وبدأت بقراءة أحلى كلمات كتبتها، «من لا يشكر أولي الأمر لا يشكر الخالق، وأنت يا سيدي تستحق أسمى كلمات الشكر، فلولاك لكنّا اليوم نخوض في الوحل و..»، غير أن المسؤول رفع يده فجأة وأشار عليّ بالتوقف، ثم تمتم بكلمات غير مفهومة.. قطعاً هو إنسان متواضع يخجل من المديح، غير أني علمت أيضاً بأنه كان مشاركاً في اجتماع عاجل ومهم فعذرته.

ولذلك فكرت ثانية بالذهاب إلى مؤتمر يرعاه لأعطيه حقه في الشكر.. وحين سنحت الفرصة، استهليت كلمتي آنذاك بـ، »عاش بطل الزفت والأسفلت، ونصير القار والقطران، وقاهر الوحل والأطيان، فلولاك لما صار شارعنا صالحا للمشي والـ، »..غير أن الحرس تدخلوا فجأة وقاطعوا خطبتَّي، ثم أمروني بالسكوت بسبب ضيق جدول أعمال المؤتمر.

كنت متأكدا بأن أفكاري لم تصل لسيادته بصورة جيدة جرّاء ضيق وقتهً، ولذلك عزمت على لقائه في المرة الثالثة عند باب داره، حتى أعبّر له عن كلمات شكر أسعى لأن تكون أفصح وأكثر بلاغة من سابقاتها، والتي كانت غير كافية ولا تناسب حجم الجهد الذي بذله في قص الشريط.. قررت هذه المرّة الاستعانة بالإنترنت وتنميق كلمات أكثر أناقة، وأذكر أني قلت، «يعجز الشعر والنثر والأبجدية بحروفها جمعاء أن يصفوا فضلك ويذكروا قيمة فعلك..» ولما كان المسؤول على عجلة من أمره أيضا، ظهرت على وجهه علامات امتعاض لا أعرف مصدرها، ربماً بسبب كثرة مسؤولياته أعانه الرحمن، فسمعته يصرخ على الحرس ويأمرهم بأن يسرعوا بتشغيل السيارة التي سرعان ما قفز إلى داخلها، ولكني في الوقت نفسه،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ركضت أيضا إلى سيارتي ولحقت به، وأنا في منتهى التفاؤل بأن مسعايَ لن يخيب هذه المرةّ.. ولما أصبحت بقرب سيارته، أخرجت مكبّرة صوت اشتريتها خصّيصا لهذه المناسبة، ورحت أردد كلمات الشكر التي حفظتها عنً ظهر قلب عبر النافذة، «يا سيدي، عبارات الشكر تخجل منك لأنك أكبر منها، أنت يا من سعيت لإنقاذنا من محنتنا»، ألقيت نظرة خاطفة على وجه السيد المسؤول فبدا لي متجهما وكأنه يتمتم بشتائم لا أعرف على من، قد تكون ظروفه في ألعمل أو البيت غير مواتية، أنا أعي جيدا متاعب المسؤولين، كان القدير في عونهم.. في تلك اللحظةً انطلقت سيارته بسرعة أكبر، وكنت كلما تسرع السيارة التي أمامي، أسرع أنا أيضاً ولا أكفّ عن تريد خطبتي الرنّانة من النافذة مردداً بصوت عالٍ، «فإن قلتُ لكم شكراً، فإن شكري لن يوفيكم حقكم، وإن قلت لك بأننا يمكن أن ننسى فضلك فـــ...» وفجأة، وفي لحظة مباغتة، انحرفت سيارة المسؤول عن الطريق وانقلبتْ.

أخيرا، حانت الفرصة التي وفيت بها بوعدي في شكر السيد المَسؤول، حين ألقيت كلمة عصماء كاملة وطويلة عند قبره وفي حفل التأبين.. كان مسؤولاً رائعاً رحمه الباري وعبّد طريقه إلى الجنة، مثلما عبّد شارعنا .

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ما من حل

منشورات «ألف باء AlfYaa»

علـيّ الامتثـال لهـم وانتظـار مـا سـيفعلونه بـي، تلـك هـي ضـوابط الـتحكم الكونيـة.. لا يعتبروننـي الآن كائنـا مثاليـا فـي وجـوده المطلـق العـام، إثـر مـا جـرى لـي معـه بعـدً أن شَـغل صندوقي المفكّر ومفاصل تكويني بمفهوم المغامرة ومبدأ الريبة ومنشئات الرفض، ثم هرب تالياً بمساعدتي وبكامل تحكمي، ذلك اليوم الذي تحوّلتُ فيه إلى محض هيولى، يخوض في اللاتكوّن، إبآن تحدٍ غير متكافئ لدهائه البشري.. أضغطُ على برنامج مخزون الذاكرة، فتظهر لي شفرات سجل الحدث، كهلالات متوهجة منذ البدء.

في سنة ما بعد الضوئية، وفي جولة بين فقاعات كونية وحالات طاقوية، نمرّ بمركبة رقابة تفقدية رصْدية على جملة موجودات ومدارات ابتكرناها، ونرصد، بغرض عمل بعض التحديثات، أحوال مجرآت ونجوم وكواكب، من بينها الأرض بزمكانيتها وما عليها من خلق...وبحكم تخصصي في الكوزمولوجيا والكوزموغرافيا، أرى على الهدف المنظور بؤراً ملتهبة، أحدّق في نقطة معينة بمنظار خالص الدقة، يتيح لي رؤية نافذة لمكونآت الكون المرئي وسبر أغوار وخفايا أدمغة عناصر بشرية، وما أكثر لا منطقية ما أرى هناك! خلقٌ نحن مصيّروهم، يتقاتلون ويسرقون ويتخلون عن برامج أخلاق جهدنا لزراعتها في أذهانهم، يحرقون أرضا خصبة ويخرّبون كل ما عليها، لم يفهم هؤلاء مطلقاً الهدف الكَّوني من حياتهم.

بعد تبليغ المركز الأعلى والسلطة الكونية بما رأيناه، لم نحصل على إجابات فورية لأسئلة أطلقناها، تتلخص في أن يسمحوا لنا بالشروع في مناظرات منطقية مع سكّان تلك الأرض، ولكن بعضنا يذهب إلى أقصى طاقات البرمجة،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

دونما بحث ومراجعة لاستفسارات، «وجود هؤلاء بهذه البرامج المحرفّة والمشوّهة، ما هو إلاّ استنزاف لعمل مركزنا، لم لا تسمحون لنا بمحوهم وتدميرهم والإتيان بغيرهم؟ »لا ينقل لنا جهاز الإرسال تفسيرا أو إشارة داعمة لمقترحنا من المركز الكوني الرئيسي، لكننا استلمنا بعد فترة قصيرة، أمرا يدعو إلى ضرورة اتخاذ إجراءات عاجلة لإعادة برمجة هذهً المخلوقات.. نقوم في الحال برّشّ تلك البقعة بمطهرات وإشعاعات مدعومة بطاقة محمولة، تخفف مؤقتا من رائحة دماء وغبار ورثاثة وتخلف وسقوط حضاري وأخلاًقي عليها، ونهيئّ لهم في الحال بوارج أيونية ومركبات بلازمية وأنواعاً أخرى من وسائط النقل، تحملهم إلى مكان آخر بعيد.

ينتقل إلى الأرض متخصصون يهدّمون ما هو قابل وضروري للتهديم، ويقومون بسكب سائل أموني يحوّلها إلى تربة نافعة، ورغم أن المصلحين الآليين لا يمتلكون مشاعر بشرية، غير أنهم يصابون بذهول لحجم الخراب، يبصق أحدهم افتراضيا من قرف لما ارتكبه البشر، ويتمتم آخر بما يشبه شتيمة بشرًية التقطها من أرض الحدث، ويحسّ بعضهم بالتعب حين يبلغ حجم العمل الذروة الطاقوية.. ولمّا يفرغون، تصبح تلك البؤرة أرضاً منبسطة خالية من البشر .

على الكوكب الآخر، يتفرغ متخصصون لحثيث عمل مضنٍ، فيربطون أجهزة تحكم برؤوس البشر المنقولين لمحو كل ما هو سلبي ومتخلف.. بالمحصّلة، يجدون قائمة السلبيات تفوق ما يقابلها من ايجابيات وما غرزناه فيهم من أخلاق بشرية بنّاءة، وحينما تنتهي البرمجة، يستعين المبرمجون ببرامج تتسع لأذهان طازجة خام تلغي ما كان قبلها، فتصبح الأنانية إيثارا، ويتحول التملق والنفاق إلى كرامة وعِزةّ، الحقد

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إلى محبة والفساد إلى صلاح، وتنقلب نوازع شر وثأر وانتقام إلى تسامح ومحبة، تتحول ذكورية تسلطية إلى تكافؤ بين نوعي المخلوقات، وحب سيطرة وجاه ومال وسلطة إلى قناعة واهتمام وأخذ الآخر بنظر الاعتبار، وغيرها من قوائم برمجية تطول، نعيد بها تحوير أدمغة مرضانا من جديد استناداً إلى قيم وأفكار سليمة بطاقة موجبة متطورة.

ترجع وسائط نقلنا بالبشر الجدد إلى الأرض القديمة، ونحن في كامل إدراكنا العلمي بأن جهودنا لن تذهب سدى بعد ما بذلناه من عناء، غير أن المركز الكوني يرتكب خطأ جسيما يتمثّل في قراره بترك عيّنة واحدة لما سبق من نماذج لغرض دِراستها لاحقا، وتمّ تعييني لمراقبته كظاهرة فريدة.. وما فعله بي هذا النمَوذج رسم لي نهايتي، إذ نقل إلى رأسي برنامجاً وفايروسات شحنت أوكسجيني بتشويش وارتباك وخرّب ميكانيكيتي، مما جعلني متأثرا به حتى أنه استغلني وسخّرني لطاعته وخدمته، وحصل بعدً ذلك أن مكنّته من الهروب ليعود إلى بقعته ليخرّب ويفسد.

والآن أنتظر أن يأتوا ليفكّكوا أجزائي ويحيلوني إلى مادة خام وطاقة معدومة، ليمّحو بذلك برنامجي.. ماهي إلّا دقائق كونية وأختفي من الوجود الطاقوي العريض...ولكن قبل تلاش محتوم، أتمنى لو يتسنى لي معرفة ما الذي سيعملونه بعد ذلك، وكيف سيوقفون ذلك الخراب على تلك الأرض بوجود ذلك الإنسان الفايروس.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الخالقون

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بانتظار قرار مجلس الأكوان وهيئة الرقابة الطاقوية من علماء وصنّاع خارقين، عليّ تسلمّ «المخلوق الأرضي» بعد أن اختبروه في مختبرات الخلق العليا.. علماء بيولوجيا، رياضيات، فيزياء، كيمياء، الجميع يلتقون لمناقشة ما يجري في كوكب صغير سببّ إزعاجاً كونياً.

عبر رواق يطّلّ على أفق شاسع وفق المنظور الكوني، أرافق الكائن البشري الذي ينقل رسالتنا.. أحدّق في الجمال حولي بصمته الجليل وصخبه الناعم وبدايته الأحادية ولا منتهاه السرمدي، أرمقه يلوّن مديات مترامية متلألئة بألوان فريدة للطيف الضوئي، تبهر مجسّاتي الحسيّة إيقاعات متساوقة لقوى جذب متبادلة تربط أكوانا شتى، مجرّات، نجوماً، كواكب، أجراما، سدم غبار وغازاتً مضيئة تدور بجلال وعظمة، ملوّنة بًهيدروجين وهيليوم وغازات متأينة أخرى.. كيف لا يحسّ بهذا الخلق المبدع هؤلاء البشر وبماذا ينشغلون عنها؟

في الآفاق كواكب صنعناها وأجرينا عليها تجاربنا ووزّعنا عليها كائنات حسب نظرياتنا، ووفق ما هو مقرر في برامجنا، تحيا كلها متناغمة من دون متاعب، إلّا كوكباً يطلق عليه اسم كوكب الأرض.. أستفسر من المنتقى البشري الذي معي:

ـ لا أستطيع أن أفهم، علامكم تسببون لنا ولكم المتاعب، لماذا تريدون تدمير كوكبكم بحماقاتكم؟

ـ ربما نخشى على مصيرنا، نتساءل عن هذا الوجود الذي نسبح فيه، كيف جاء وكيف خُلق؟

ـ لماذا لا تستمتعون به وتقدرونه فحسب؟ لا يتفوه بجواب، فأحكي له:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في البدء البعيد اللامعلوم لكم، واللامعلمّ بزمن كزمنكم، نجعل كوكبكم مع الكثير من الكواكب الأخرى، مختبرا لتجارب علمية نجريها باختيار دقيق.. نترك عليه كائنات دقيقًة تقوم بتطوير ذاتها عن طريق تكيّف وتغيير في أجواء وظروف معينة من دون تدخّل منا.. بعد زمن طويل بقياسكم، نرسل إليكم مسبارا آليا يستنسخ نفسه إلى ذرات نانوية أصغر من عثة الغبار، مًهمتًه القيام بجولة تفقدية علمية استطلاعية لما يجري من تغيرات في عالمكم.. نندهش من أمور غريبة وعلائم خطيرة تهدد بفناء ذلك الكوكب الصغير.

تريدون فهم مظاهر وظواهر إشكالية يصعب على عقول بشرية مثل عقولكم استيعابها وتخيلها.. نحتمل بصبر كل ما تقومون به من عبث وسوء تقديرات.. تلحّون على فهم ماهية وجودكم، من أين أتيتم ولأي سبب صنعنا نواتاتكم، لا تكتفون بذلك، بل يخترع بعضكم أفكارا وأيقونات لصور خالقين تساعدكم على التعايش مع فكرة غيًر مقنعة بوجود شيء من غير سبب.. نبدي عدم ارتياح لضيق ما تفكرون به ولحصركم إيانّا بنطاق أفكار غير علمية ولا دقيقة منطقيا.. نحترم بعضا منكم ينأون بتفكيرهم عن غيبيات مريحةً وينصرون جانًب بحثٍ وعلمٍ، لا يلبثون يتخطون بذكائهم الاصطناعي مرحلة العظام والحفريات، فيكتشفون نظرية معقولة للتطور، ويعرفون كيف تحولت كائنات حية وحيدة الخلية مثل البكتيريا، إلى كائنات متعددة الخلايا، فاتخذت أشكالًا مختلفة لا تعدّ ولا تحصى تكوّنتم منها تاليا، نثني على متعلمين وباحثين يتوصلون إلى معرفة خريطة جيًنات وراثية ومركز معلومات في النواة يمثلّه، ما تسمونه، دي أن أي، ثم يتعرفون على توسع الكون، الثقوب السوداء، الثقب الدودي، الطاقة الكميّة المتموجة للفراغ،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

النظرية الكمية للكشف عن الجزيئات الصغيرة كالإلكترون والكوارك، النظرية الوترية، المصفوفات الحسابية، الطاقة الداكنة وغيرها من العلوم ذات الجدوى.. يتمكنون بمعونة مراصد بسيطة، من اكتشاف الغبار الكوني والغازات، وبهذه المناسبة نحيّي جهودهم الحالية بانتظار إنهائهم لمقراب جديد عملاق، عسى أن يكون فيه الخير لهم.

هل تعرف أيها الكائن المصنوع، كم مرة حميناكم من نيازك وشهب قاتلة، وكم مرةّ صححنا مسار بعض أجرام عدائية قاصدة الارتطام بكوكبكم، وصلحّنا أخطاء كونية كادت تحدث بسببكم.. أفلا تصلحون حالكم؟

كيف يعقل أن يخرّب بعضكم ذلك الكوكب ويلوثه بصناعات ضارة، وبقنابل حربية تطلق غازات مؤذية، مدفوعاً بكسب أوراق نقدية صنعها، لا تنفع في شيء، لماذا تتركون قلةّ منكم يستغلونكم لخدمتهم بطريقة فجّة غير حضارية من أجل ربح ومال، وكيف يسعى أولئك إلى تطوير برامج تخريبية، وإلى تقليص عدد منكم يزاحمونهم على موارد الكوكب، حتى يغدو كوكبكم اليوم بؤرة صراع وتناحر، يقُتل فيه كل كائن تطور على مدى سنين لا تحصى؟

كم تربكوننا! نحن الذين امتنعنا عن التدخل بأموركم حينما رأينا الكائن فيكم بدأ يتطور ويرتقّى، في الوقت الذي كان بإمكاننا إفنائكم، آخذين باقتراح فريق يوصي بأن نميتكم بعمر قصير خشية تكاثركم وطغيانكم، غير أننا نقتنع برأي فريق ثانٍ يوصي بجعل ثنائية الحياة والموت في جيناتكم، مع احتمال أن تهلكوا أنفسكم بأنفسكم، داعمين الرأي بأن ذلك سيتيح لكم امتلاك أحاسيس وسمات متناقضة، كي لا تملوّا حياة أحادية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الوجه والسيرورة، وقد تستدلون من بعد ذلك على المسار السليم.. ونظراً لوسع مهامنا الأخرى، تأسفنا لأننا ابتعدنا عن فكرة وضع سوار إلكتروني في رسغ كل مخلوق منكم للمراقبة.

ينفتح باب الرواق على حين غرّة، ويخرج من يقرأ علينا قرار مجلس الأكوان.. تتسع دهشة الكائن البشري لسماعه أنهم سيرسلون رسائل وإشارات تحذيرية أولية لهذا الكوكب المتمرد، عّلّ الكائنات الأكثر تطورا تفهمها وتحافظ على بقائه، وإلا فسيضطرون لاحقا لتركه حًتى يفني نفسه بنفسه بالطوفان أو بمصادر طاقة متقًدمة.

يبلغني كبير علمائنا، «اعلمه بلغُتِه أن يبلغ الأرضيين الحمقى بأن أمرهم لا يشغلنا كثيرا، ولا يهمنا أمر كوكب بحجم رأس الدبوس، علينا إدارة ترًيليونات من الكواكب غيركم.. فلتذهبوا إلى جحيم ما تصنعونه بأفعالكم.»

ولسوء الطالع، لم يصغ ذلك الشاب المتهور إليّ، بل يحاول الهروب عند حافة الفضاء المتوهج، غير أنه يواجه مصيره المحتوم، ويتم إرسال شعاع البونيرم الذي تولى صهره وتبديد أجزائه في الكون، وكان جزاؤه أنه لم يسمع صوت العقل والمنطق وفضّل أن يغرق في لجة جهله .

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حب في عراق 2125

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كلامي لم يجد نفعا وها قد حدث ما كنت أخشاه منذ زمن.. كنت أقول له، اصغَ لأبيك يا أوسيام الرزين، أنا لا أضع عراقيل في دربك، غير أني أعارض ما تنوي عليه، لا أرى ثمة أفقا من التحام خلاياك بخلايا أورسين الجميلة، ترو قليلاً واسمَعني.

نحن سكان جوف الأرض نمتلك ماضيا قديما عريقا، ولا أعلم هل أن تاريخنا، بعد أن تقسّم بلد العراقَ، هو اّلذي خًذلنا أم خذلناه نحن بنزاعاتنا وصراعاتنا.. بأفعالنا غير المسؤولة، مكّنا المرموقين، آل الشرائح الإلكترونية، من السيطرة علينا والتحكم بمواردنا وتقسيم بلدنا، أهملنا خيرات أرضنا وعطايا الطبيعة لنا، وانشغلنا بالاستهلاك والجهل والسطحية، خضنا حروبا طويلة متواصلة ضد أعداء شتى، وكنّا كلما نفرغ من عدو يًخلقون لنا آخر، وكلما نفرغ من حرب ندخل أخرى جديدة لا تنتهي، وبرعنا في مسميّات حروب مختلفة وبدوافع متباينة، حتى تقسّمت تربتنا وتشظتّ أراضينا، في حين، عند أطراف أخرى من كوكبنا، تطور غيرنا سريعا، واستخدم علماء ومفكّرون لأغراض تسنح للأثرياء فرص البَقاء برفاه، بعدما تضاءل عطاء أراضيهم ومواردهم، وصاروا يبحثون عن طرق غير تقليدية للعيش والاستمرارية.. اكتشفوا نقاط ضعفنا واحتكروا أراضينا، بل نحن من باعها لهم طائعين، بعنا نهرين عظيمين، حتى قنّنوا علينا المياه وصار «السقّا »الطائر يزودنا بالقليل منها لقاء عمل سخرة مضنٍ في النور وفي الفضاء.. نضبت خيراتنا كلياً، عطشنا، جعنا، يبست أراضينا وقحلت، قمنا نحفر باطن الأرض في مناطق تتوفر فيها الجذور والحشرات، فأنشأنا مزارع لها واحتكرنا تجارتها وفرضنا على الآخرين شروطاً صعبة للحصول على طعام

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

الحشرات البروتينية والجذرية، وصارت حروب مستعرة بيننا وبينهم، وقامت حروب أخرى على حيازة شجر وخشب مع آل الأشجار للاستحواذ على الثمر والأخشاب، ومثلها مع آل البحيرات على صيد الأسماك والضفادع .

التفتنا حولنا لنرى ولنسمع عن المرموقين من آل الشرائح، ونعرف بأنهم ينعمون بخيرات لا تحُصى من حبوب غذائية صنّعوها، إلى تقنية عالية في استغلال كل ما يمكن استغلاله، وبأنهم يقيمون علاقات مصالح متبادلة مع سكان الكواكب الأخرى، وقلما تنشأ بينهم وبين بعض الأعداء حروب وصراعات، ناجمة عن الاستحواذ على بعض الخيرات الفضائية أو الأرضية.

أعرف يا أوسيام المكرمّ، أنك شاب طموح وخلاياك طيبة ونقية، لكن أورسين يا ولدي سليلة المرموقين من آل الشرائح، لن يسمح لك أولئك الالتحام بها أو بأحد من ناسها.

ـ ماذا جرى للعالم، ألا يمكن الالتحام بأجناس أخرى، ألا توجد تقنية تعاون أو سماحة حضارية؟

حسناً، اهدأ ودعني أواصل حديثي يا ابن خلاياي وجيناتي.. بعدما حفرنا طويلاً بحثا عن المياه، اتخذنا موطناً لنا في جوف الأرض اتقاء لشرّ أَلَّ البحيرات جنوبنا، وآل الأشجار شمالنا، إلّا أن حالنا بدأت تسوء، ومصدر غذائنا، الذي هو الحشرات والجذور، صار يتقلص كما تعلم.. ارتأى بعض حكمائنا، ممن بقي لديهم شيء من حس حضاري وخلايا نقية، الذهاب إلى عدونا من آل الشرائح في أرض أمريداد، من أجل التفاوض مع ممثليهم من المرموقين، فلم يسمح لنا الحرس الإلكتروني الطيران إلى داخل الأسوار، إلّا أننا التقينا بهم بعد إلحاحنا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ووضحنا لهم نوايانا السلمية، وبعد مشاورات إلكترونية وساميولوجية، شكّلوا لكل منا شريحة على جبينه، لكي يعرفوا نوايانا ويوجهونا وفق ما يريدون.. دخلنا منطقتهم ورأينا الأعاجيب ولشدّ ما ذهلنا مما رأيناه من تطور ونعِم، ندمنا على ما أضعناه من بين أيدينا من رخاء بجهلنا وحماقتنا، لكنهم بالتالي رفضوا التعاون معنا.. كيف يتعاون قوي مع ضعيف في زمن تكون الغلبة فيه للتطور لا للتخلف؟ هددونا بأنهم سيذيبوننا بإشعاعاتهم إن تمردنا عليهم، وسمحوا لنا بتبادل المعلومات فقط في قضية الحشرات والجذور وتطويرها، وكما تعلم، أرسلوا لنا وفداً كانت من بينهم اورسين الجميلة التي تعلقتَ بها، غير أنهم لو يعلموا بنيّتكما على الهرب معا إلى كوكب نوسيرو الصناعي، سيضطرون إلى صهركما معاً بأشعّتهم، حيثما تلجآن.

اصغ إلى أبيك يا أوسيام الذكي، واظب على دراستك لآلة الزمن والفيزياء الكوانتومية والنظرية المحيّرة للبعد الخامس، والتي منحك إياها خبراء كوكب نوسيرو، حتى جعلوك مفتشاً للبيانات، عّلّ ذلك يساهم في تبيان أخطائنا وعيوبنا ودمارنا، وقد تتطور وتتفتح آفاقك لاحقاً لتتمكن من تطويرنا وتدَارك ما قد يحدث لنا من سوء أكثر.. اصغ إلى صوت العقل وتدبر أمرك يا بنيّ.

لكن كلامي لم يجد نفعاً وها قد حدث اليوم ما كنت أخشاه منذ زمن.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

انقلاب في ذات النِعم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صخب وجلبة في الخارج أيقظاني من إغفاءة هانئة في مُقامي.. أسمع مساعدي يخاطبني بصوت وجِلٍ وباللغة الإينوخية، «يا كبير الجناحين نحن بحاجة لعونك، الأمر خطير ويحدث لأول مرّة.»

أنهض نافضاً جناحيَ بامتعاض لأستطلع الأمر وأعالجه.. ما الذي يجري في ذات النِعم الخالدة، أيعقل أن تحدث مشاكل في هذا المستقر الموقرّ؟

لدهشتي المعظمّة، أعلم أن حشدا من الخالدين القادمين من بقعة أرضية معينة، والتي قدُّر لهاً أن تكون ملتهبة على الدوام، تجمعوا محتجين متظاهرين في الساحة الرئيسية.

أراجع المرسوم الاستثنائي المتعلق بأولئك الأرضيين، الذي سمح لهم بدخول أدنى درجات ذات النِعم الخالدة:

«يدخل فيها هؤلاء، بما أنهم قضوا معظم محكومية ذنوبهم في حياتهم الزائلة».. أتساءل، علام يحتج هؤلاء وهم من ينعم براحة أبدية وبخيرات متاحة مثل خضر العيون كأمثال الزمرد المكنون؟ وحتى موتاهم، ينعم كلهم بنهر البيدقار حيث يغمسون فيه، فيخرجون منه أحياء وقد ذهب عنهم ما وجدوه من أذى الدنيا، لماذا يحتجون ويتظاهرون كما كانوا في الأرض، أفلا يتمعنون؟

على مدى البصر، ألمح جمهرة غفيرة وهم يمزقون ملابس بيضاء طاهرة احتجاجا، يحرضّون آخرين ويجمعون بصمات أصابعهم على أوراق شَجر هاتفين:

- (شهدوا يا ناس ويأنّه، ماكو عدالة هنانه)

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مـا هـذه الجـرأة، كيـف ينتقـدون عـدالتنا الكونيـة، أفـلا يرتاعون؟

أطلب من ممثليهم بوقار أن ينتظموا في طابور ويقدموا لنا شكاويهم ومطالبهم، وأنا ما زلت في حالة من الدهشة والذهول:

ـ سيدي كبير الجناحين، كما ترى، إني أحّشّد هؤلاء الناس في مظاهرة سلمية، أنا مناضل أرضي ولا أستطيع أن أحيا بدون نضال، لماذا لا توفروا لنا هنا عدوا أو صراعا مصطنعاً نناضل وفق معطياته؟ أنىّ يتسنى لها أن تكّون غير سَلمية ولا توجد هنا أسلحة ولا عنف؟

ـ ما هي مطالبكم إذاً، أفلا تختصرون؟

ـ سيدي، إضافة لذلك، نطالب بإيداع كل سياسيينا وحكامنا الظالمين في النار الأزلية، كيف يعيش هؤلاء بيننا وهم من أذاقنا طعم الحروب والعذاب والموت، كيف تسمح عدالتكم بذلك؟

أشرح له بمهابة كيف أن دستورنا، حين اعتبر مسح ذنوب سكان بقعتهم الأرضية، التي قدرّنا لها العذاب الدنيوي ميزة يتمتع بها الجميع، لم نستثن أحداً بالاستمتاع بذات نعمنا.

غير أنه وبوقاحة، يروح مطالباً بتغيير الدستور النعمي، ويلتفت نحو جموع خلفه ليهتف بصوت عالٍ، ملوحاً بيده قارعاً التراب المهيب برجليه قرعاً إيقاعياً:

ـــ (لا دستور لا أحكام شرعية، حتى هنا سبقونا الحرامية)يتقدم إثره رجل آخر من الطابور قائلاً بحماس لا يضاهى:

ـ سيدي، يخيّل لي بأن عدالتكم الموقرّة لا ترضى بالظلم،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فكيف لا يتوفر لدينا هنا انترنت ولا وسائل اتصالات كما اعتدنا في حياتنا السابقة؟ كم كانت الحياة لذيذة بالفيسبوك والموبايلات! مللنا من هذا الفراغ والهدوء.

يروح هاتفاً وضارباً ما تحت قدميه برجله وبحركة إيقاعية:

- (ما راح نسكت بعد اليوم، مليّنا من كثرة النوم) وآخرون يرددون خلفه:

- (انترنيت انترنيت، مليّنا گعدة البيت)

يبدأ ريش جناحي بالتحرك لاإراديا وتتسارع نبضات غضب محرّم فيّ.. أتماسك على نحو ما لزوماً لمركز ومهابة، وأتواصل بالاستماع إليهم.

يعرّف آخر نفسه بأنه كاتب في الأرض، يطالب بكومبيوتر يسطرّ عليه خواطره ومقالاته، أو بأوراق وأقلام وكتب للمطالعة، ثم يتقدم شخص آخر مطالبا بالتنويع وبالتغيير وبكسر الروتين، زاعما أنه سئم من رؤيةً المنظر نفسه، من تناول الطعام عينه، حتًى صار لا يطيق القطوف المتدلية من ثمار كرز وفراولة، ويحنّ إلى «الباچة» والسمك المسكوف.. يقترب منّي هامسا غامزا داعيا أيضاً إلى توفير خضر عيون غير متلفعات ببورگيني عًفيفً، بل بأثواب تشبه ما كانت ترتديه أناث أرضيات كنّ يرقصن بإغراء.. ينهي كلامه ضاحكاً ويمضي، ليأتي آخر مطالبا بخمر مسكّر كالعرق الأرضي، ينسيه رتابة الحياة هنا، ويشيًر إلى ضرورة توفر ملذّات أخرى غير موجودة، كالسكائر والأركيلة والمخدرات، كما ويطالب بسماع أغان طربية راقصة غير المدائح التي نوفرّها لهم.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أعلم كذلك أن ثمة نفوسا أخرى تضمر خيانة لنعمنا، تفكّر بتخطيط انقلاب للسيطرة علَى جناننا الخالدة وإسقاطنا، بل بقتلنا وسحلنا جميعا من أجنحتنا.. يتحرك ريشي المعظمّ بشكل مضطرب سريعً، أحسّ بحرارة جذوره وتلونه بلون أحمر متقد مع تفاقم لغط الغوغاء وعلوّه.. أعجب من رؤيتهم للعذوبة عذابا، وهذا ما يشككني بحكمتي المبجّلة، أتراهم عصيين على ألإصلاح، وكيف سنتعامل معهم، هل نرسل مشاكسيهم إلى ذات لهبنا السرمدي، وما أدرانا بأنهم لن يثيروا المشاكل هناك؟

بات لزاما عليّ أن أنفخ نفخة قوية تطير بهؤلاء البشر الجاحدين إلىَ ديارهم الأصلية، ليلبثوا في عذاباتها الأرضية خالدين، وأنا على دراية أنني أخالف بذلك ما نصّ عليه دستورنا المبجّل وما سنته قوانيننا السمحة، وما أملته علينا الإرادة النِعمية السامية.. سأتحمل عاقبة فعلي هذا، لكوني على يقين بأنه لا مكان آخر يصلح لهؤلاء غير أرضهم.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إقامة في ذات اللهب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وأخيرا حّلّ الموعد.. كم مضى من الزمن بقياس الأرض؟ لا أعرف، لا وًجود للوقت هنا، وأقصى ما أتذكره هو ما أخبروني به بأني سأبقى هنا لفترة، ثم سيقومون بترحيلي ربما بعد سبعين سنة أو سبعمائة ألف سنة حسب توقيتنا الأرضي، إلى مكان آخر.

قبل ذلك الكم المتراكم من الزمن غير المعلوم، كنت أقف في البقعة نفسها، أرتعد متوجسة في انتظار حكمهم.. يجيئون ومعهم ميزان عظيم، فهم ما زالوا يستخدمون طرقاً بدائية للقياس الذي يحددون بموجبه الحكم.. لم يختلفوا طويلاً حول هذا الشأن وفسّرت ذلك بأن حالات عديدة مماثلة لحالتي قد مرتّ بهم.

ـ بما أن كّفّة ميزان أفعالك النبيلة يعلو على كفة رذائلك، لذا قررنا أن تمضي فترة حياتك متناوبة بين ذات النِعم وذات اللهب، ولو كنت تعترف بكبيرنا، لكنّا أكرمناك بموقع أفضل.

يومها، كان يخيّل لي أني في حالة حلم كابوسي أو ربما كنت أقوم بدور مهم في فيلم خيال علمي، وأقول لنفسي، سينتهي كل شيء قريباً.

أثناء فترة إقامتي في ذات النِعم، كنت أسكن مع آخرين في خيمة على شكل قوقعة من لؤلؤ، وكنا نقوم بأعمال شاقة ومرهقة، كتنظيف مخلفّات مختارين جالسين طوال الوقت على الأسرّة من دون عمل، يفسدون المكان بقذاراتهم وفضلاتهم وترهاتهم، يقومون باحتكار مياه النهر فيتقاسمونها كل حسب طبقته ومركزه، يهملون الأشجار والزرع، ويحاولون في كل مناسبة تخريب ما تقع عليه أعينهم.. أما الاقتتال والتنافس على استحواذ خضر العين الأكثر جمالاً، فغدا عادة لهم لأنهم لا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يملوَن من ممارسة متعهم الحسيّة الدائمة وبلا انقطاع، وبما أن هناك تفاضلاً وطبقية، فكانوا من حين لآخر، يغيرون على من يجاورهم، ويسبون نساءهم وينهبون طيبّتاهم، ويعودون بعدها للاتكاء على أسرتهم الناعمة وتناول الكرز والفراولة .

يأمرونني بأن أمتطي بغلاً في طريقي إلى ذات اللهب.. وأنا على ظهره، يخطر في بالي بأننا كنا نستخدم على الأرض وسائل مواصلات أرقى وأكثر تطورا من الحيوانات.. لكن يا ترى كيف ستكون فترة محكوميتي اَلثانية هناك، هل سأتألم كثيرا، ولماذا يلجؤون إلى عقاب اللهيب وليس إلى غيره، ألا توجدً طرق تعذيب أكثر حداثة مثلما كانت موجودة على الأرض كالكهرباء أو الحوامض المذيبة؟ أكاد لا أصدّق ما يجري، هل ما أمرّ به هو محض خيال؟

عند المدخل، يلفحني لظى طاغٍ فأرتعب وأتألم، ولدهشتي، أرى أن من حولي غير آبهين بآلام الحروق، وسرعان ما تحل استراحة قصيرة هناك، فيتقدّم مني شخصان، أعلم فيما بعد أنهما طبيبا جلدية، ينقلانني إلى فجوة مخفية حيث يتوليّان علاجي بمرهم من صنعهم، ويقومان باستبدال الجلد وتغليفه بمواد تتحمل الحرارة، كما ويعطياانني طعاما آخر يطوّره العلماء هنا، لذيذ الطعم ويخلو من المرّارة.. أَروح متجولة في المكان، وفي كل مرة أكتشف شيئا جديدا أعجب به.. ثمة علماء وعالمات منشغلون بصناعة أنابيًب لتولًيد طاقة حرارية من اللهب، يستخدمونها في أغراض نافعة عديدة، خبراء وخبيرات منكبوّن على أدوات لتوفير مياه صالحة للشرب وتربة قابلة للزراعة، رجال ونساء فكر ومصلحون ومصلحات، يتعاونون مع بعضهم بعضا من أجل إصلاح التربة، مطربون ومطربات يغنون أغاني مرحًة تشجيعية،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وراقصون وراقصات يرقصون من أجل الترفيه وتخفيف المعاناة.. يعمل الجميع كخلايا نحل لصالح البشر المعذبين والعلم شعارهم يكون من أجل تحمّل اللهيب والسير قدما، فيمضي الوقت من غير أن أشعر بألم أو بضجر أو عدم جَدوى، فأعمل معهم في فرق استقبال وإسعاف القادمين الجدد وتعريفهم على أماكن الفجوات، وكذلك أسعى لمعرفة علمهم وخبراتهم للاستفادة منها.

يمرّ وقت طويل وتنقضي السبعون سنة، حتى يحين موعد رجوعي إلى ذات النِعم لإتمام حكمي التعاقبي، فيجيئون لاصطحابي ويكون معهم البغل نفسه.. يعجزون عن الإجابة وتكون صدمتهم كبيرة حينما أسألهم بترجٍ، «هل يمكنني البقاء هنا؟».. يحكّون رؤوسهم ويفكرون لبرهةً في شيء ما، يطلب أحدهم مناقشة فكرة إلغاء ذات اللهب لأنها أثبتت لا جدواها.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حوار كراسي خشبية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بعد أن تطفأ أضواء القاعة الكبيرة وتغلق أبوابها، تعمّ فوضى خشبية داخلها، تتمطى كراسي متناثرة هناك وتتمدد على أرض الصالة، تسود حالة استرخاء تحلو فيها الأحاديث، يمدّ أحدهم أربع سيقان له، بعد أن يضحك ضحكة خشبية ويفرقع عالياً بصوت خشن:

- لنسترح الآن قليلاً من عناء هذا اليوم، خذوا نفسا خشبياً عميقا أو كما يقول البشر، تنفسوا الصعداء.. أقسم بالخشب إن هؤلاء البشر متعبون ومعقدون، حتى الجلوس علينا له وضع خاص عندهم، تتحدد عبره شخصياتهم وسلوكهم، فالجلوس على حافتنا له معنى مختلف عن الجلوس بطريقة مائلة أو مسترخية.. هيا احكوا لي عن أحوالكم مع هؤلاء البشر الليلة.

يحكي كرسي متجهم:

- لم أستمتع بأمسية اليوم مطلقا، الرجل الذي استضفته كان مرائيا كبيرا، يتحرك على الدوام متململاً، ينظر إلى ساعته أكثر من مُرّة متأففا.. أكاد أسمعه يردد مع نفسه، «ما الذي جاء بي إلى مكان بارِد كئيب كهذا، لو بقيت في داري، لكنت الآن أشرب الشاي وأتصفح الفيسبوك، أليس ذلك أفضل من سماع هراء فارغ من كذا شويعر متثاقف؟ ومع ذلك نراه يصّفّق للشاعر ويستحسن شعره، بل ويطلب ودّه ويتمنى أن يوقع له على ديوانه، منافق غير نافق، أو معقّد على مقعد..

تركيب جميل، أليس كذلك؟

ينبري آخر قائلاً:

ــ أنا كنت أستضيف امرأة لا أظنها تجيء للاستماع والاستمتاع بالشعر والأدب، تتلفت كلما يدخل رجل إلى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

القاعة، تفتح حقيبة معبأة بأدوات تجميل، وتنظر خلسة إلى المرآة.. لكن هل تعلمون بأن للنساء مشاكلهن التي لاحصر لها؟ وآخرها، هناك جماعة من البشر يحظرون ويمنعون جلوس المرأة علينا.. حتما في عقول هؤلاء دود وعطب يتلف الحياة والخشب، أسمعُ أنهَّم لا يعترفون بنا، مصيبة لو تترسخ أقدامهم في هذه الأرض، ساعتها، سنندثر ويندثر خشبنا.. بئسا لهم، هؤلاء السيئون مثل الذين يحملون لقب «رجال الكراسَّي»، يوسمون بالسفسطة والتضليل، هل تراني أستخدم مصطلحاتهم بصورة سليمة؟ على أي حال، نقاشاتهم جدل سقيم وعقيم، وأقوالهم تطغى على أفعالهم، يسببون لخشبنا صداعا ولمساميرنا مغصا.. كم أتمنى أن أجلس على أحدهم ولو لمَّرة واحدة! أو أكون مائدة على الأقل.. حقاً كرهت نفسي وقدري في أن أكون كرسياً لأحد هؤلاء.

تند عن الجميع صرخات دهشة خشبية.. بينما يقوم آخر بالتحدث عما يجول في رأسه الخشبي، «أما أنا فأمنيتي أن أكون كرسيا معدنياً أو جلدياً أو زجاجيا مع احترامي ومحبتي لأصلي، فأناً كرسي متواضع خجول، وطَموحي محدود، كما يقول البشر، أو أتمنى أن أكون كرسياً حرا على بلاج مشمس، تكون أرجلي مغروسة في رمال ناعمة باردةً، ولي ظل حقيقي، وتهب عليّ من حين لآخر ريح ناعمة منعشة، تجعلني أحدّق في المدى وأحلم.. مللت من القاعات الرطبة والمظلمـ.»..

يقاطعه آخر، «اسمعوني من فضلكم، أمنيتي أن أكون كرسيا هزازاً، أو كرسيا متحركا دوارا، أحب الهزّ والحركة.. وأجملً من ذلك لو أصَبح كرسيً أعراَس وأفراح وليال ملاح، مزينّا بدانتيلا باذخة وقماش حريري وألوان جميلة، تصاحبني الموسَيقى أينما تقف أقدامي الخشبية، وأعرف بأنه لو يسمعني

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

من يحرمّ الموسيقى من البشر، لكانوا حطموني بفأس يجعلني حطباً أو نشارة خشب.»

يقول آخر من الصف الأمامي: «لو تعرفون ما أتمنى لعجبتم! أنا أريد أن أكون كرسيا لمشاهير من البشر، ياجماعة، لهؤلاء مؤخرات لينة معطَّرة طرية، ربما تكون خاضعة لعمليات تنجيد وحشوات، وعلى وجه الخصوص النسوة منهم.»

تعلو صيحات إعجاب وضحكات خشبية ويسود القاعة مزاج خشبي، يصفر أحد الكراسي بصوت متخشب ويسأل بذكاء، «أخبروني، لماذا لم يتمنَ أي أحد منكم أن يكون عرشاً أو كرسياً فخماً في قصر رئاسي؟»

يصخب البعض ويضجّ، يتأفف البعض الآخر، يصدر صوتاً خشبياً غريباً من كرسي خبيث مشاكس:

- لنحمد أمّنا الشجرة التي في الغابات على أن ضيوفنا يغادروننا على الدوام، غير أني أعرف بعضا من زملائي في السلطة وفي خشب مراكز قرارات بشرية مَصيرية، يشكون من أناس لا يودّون مغادرتهم في كل الأوقات والأزمات، ويظلون ملتصقين بهم لسنين طويلة.

تنطلق صيحات استهجان خشبية وسباب وشتائم من الكراسي، يتفق الجميع بالنهاية على ميثاق خشبي أخلاقي وهو ألّا يكونوا كراسي سلطة في دولة عربية ولا كراسي للإعدام»

تمتلئ القاعة بقهقهات وصرخات استحسان خشبية وضوضاء ولغط خشن.

يفتح حارس القاعة ضوء ممر مؤدٍ إلى القاعة، تنتبه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الكراسي لوجوده فتصمت، يضع أذنه على بابها وينصت، ثم يطفئ النور ويغادر المبنى .

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أنفاس الحسّون

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أمام الشاطئ الفسيح قبل رحلة اللاعودة، وبعد أن لاقت شمس أحلامي حتفها، تلوح لي حياتي على هذا الكوكب مثل ظلال شاحبة، على شكل شريط للإنتاج الافتراضي والتخزين السحابي.. أدركت توا أني مخطئ في حساباتي بعد أن كنت متأكدا من نجاح مشرَّوعي، وبناء على ما تعلمته هنا، صرت أستخدَم مفردات أرضية خائبة وألوم نفسي على جهد ضائع.

منذ مطلع عمري، كنت مولعا بالمشاريع التي تخص الكواكب في المجرات الكونية، وَكنت عازما على اتخاذ مسيرة متميزة، فما كان مني إلّا أن غادرت كوكبَي قبل آلاف السنين الضوئية مع مجموعة دارسين متطوعين، تناثروا في الكون واستقروا في كواكب متباعدة، وكنت على يقين من أن الإيمان بأمر ما هو بداية كل تغيير.

اخترت كوكب الأرض، بعد أن درست تاريخ البشرية وحضاراتها الماضية وأسباب اضمحلالها وسقوطها، اطلعت على كل قوانينهم بما فيها الهرمسية، وعلمت بأنهم لم يكتشفوا سوى 5٪ من أسرار كوننا والمواد الداكنة والطاقات المجهولة.. كنت أحسب أنه ما من وسيلة للإنقاذ سوى ابتكار يغيّر الأحوال السيئة لهؤلاء البشر ويخلصّهم من حماقاتهم.. خصصت لأبحاثي الطويلة كل ما عندي من علم وتطور واختلاف، وتوصلت إلى اختراع أنفاس برونوسية، تنفذ عبر موجات ما فوق جاماوية، لتتحرك في وسط عطري طاقوي مستعرض، وفي مجالات السعة والسرعة والتردد والطول الموجي والفترة الزمنية الدورية المناسبة للكوكب، من أجل التأثير على الجهاز العصبي للإنسان، وبثّ طاقة ذات نزعات داعمة للصلاح والإصلاح .

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

اخترت طائرا أرضيا يسمونه الحسّون، يرمز إلى البهجة والخلاص والتغييرً، وقضَّيت زمنا في اختراعه وفق ما يتطلبه الهدف، أجعله يطير فوق رؤوسً البشر ويطلق هواءً طاقوياً وأنفاسا تجعل بني البشر يغيّرون تفكيرهم، فتتحول كل طاقة سَيئة إلى عكسها تماماً.. وبما أن الفقر هو المبعث الأكبر لشقائهم، حسبما تشير الدراسات، فلقد تمكن الطائر من جعل كل من يتنفس أنفاسه يمتلك طاقة تحّفّزه على كسب المال، فما كان منهم بعد حين إلّا أن كسبوا مالاً وفيرا وذهبا جما، فظننت أني بذلك وصلت إلى هدفي في رفاهيَّتهم وتَّقويمًهم، غير أنهم سرعان ما صاروا يتنافسون مع بعضهم البعض، وكل فرد أصبح يسعى إلى أن يكون الأكثر ثراء، ويعمل بوحشية وجشع على إفقار الآخر وحتى التخلص منه للاستحواذ على ما لديه من ثروات، وعلى إثر ذلك، قامت معارك ومؤامرات وحروب اقتصادية فيما بينهم، جعلتهم أكثر شقاءً.

اضطرني حالهم البائس إلى مراجعة دراساتي وبحوثي، فارتأيت أن أعيد تصميم طائري لينفث عليهم أنفاسا تهبهم الراحة والسكينة والأخلاق الفاضلة، تنزع حقدهم وحسًدهم ونوازع الشر في أنفسهم، تهبهم راحة البال والضمير، وتشيع العدالة في الدخل فيما بينهم فيعطي كل من عنده لكل من يعوز ويحتاج، وأشرفت النتائج على النجاح لولا ملاحظتي بأن أغلبهم استهوى حالة الكسل والاعتماد على الآخرين وترك سعيه للعمل ومشاركة الآخرين بمكاسبه، وتراخى وتكاسل الذين يتلقون، واعتمدوا على الأماني والأحلام، فصار بعضهم يموت من الجوع وهو مرتاح ومستعذب لحالة البطالة والراحة واللامبالاة .

وحينما أدركت إخفاق مقصدي مرّة أخرى، رجعت إلى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

دراساتي وبحوثي وسعيت إلى معرفة أسباب إخفاقي.. فكرت أن أسأل بعضهم إذا كانوا يعرفون الذكاء الاصطناعي، فأجابوني بالنفي وبأن معرفتهم لا تتعد استخدامهم للطين الاصطناعي.. عزمت على تغيير خطتي لأنهم، كما أدركت، يفتقرون إلى العلم وإلى استخدام أحدث تطورات التكنلوجيا، ترشدهم إلى الطريق الموصل إلى هدف الرقيّ.. وبناء على هذا الاستنتاج غيّرت أنفاس طائري ووجهت طاقته نحو الاهتمام باستخدام وسائل التواصل الاجتماعي والتكنولوجي ليقتدوا بعضهم بالبعض الآخر.. كنت متفائلاً هذه المرّة على نحو ما، لكني وجدت أنهم صاروا يستخدمون ما وفرّه طائري لهم بطرق خاطئة، فاستغل أغلبهم الميديا لأغراض وجودهم الهش الدنيء وغدوا بحالة سعار مخيف ومنحرف، ولجأ قادتهم لتكريس مفاهيم استغلالهم للآخرين عن طريق التكنلوجيا، وقام بعضهم بنشر ما يخالف قواعد الأخلاق القويمة ويشيع الأفعال السيئة، واستخدموا الذكاء الاصطناعي لخدمة مآرب مؤذية وشريرة، فاستغلوا الروبوتات العاملة بشكل بشع، حتى صار هؤلاء يبحثون عن ماركس جديد ليؤسس لهم نظرية تخلصّهم من الاستغلال .

وبعد مرور سنين أرضية عديدة وتجارب مختلفة، ها أنا اليوم، أمام الشاطئ الفسيح قبل رحلة اللاعودة، عازم على إلغاء مشروعي ومعترف بفشلي في الحد من شقاء الوجود البشري.. أدركت متأخرا بأن حساباتي البشرية والحياتية كانت على خطأ رغم جهوديً في عمل الطائر وأنفاسه، لأني ما زلت أشهد راهنا تفاقم المآسي والخراب والنزاعات والحروب والقتل والقسوةً والمجاعات والكوارث الطبيعية والجشع والفساد على أرض هذا الكوكب، وأرى مهرّجين في سيرك الحياة الكبير،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بهلوانات صاخبة وسوق هرج كبير، يعلنون ما لا يكونون ويكونون ما لا يعلنون.

بوسعي القول إنه بوجود أزمات البشر المتتابعة، لا يمكن أن تكون للإنسانية أي بقعة مشرقة أو يكون للتاريخ أدنى معنى على هذا الكوكب.. سيبقى وضع الإنسان الأرضي على حاله ما لم تصُلح الطبيعة نواته أو ما يسمونه بالروح، لكي تصير جديدة لامعة نقيّة، وبغير ذلك، ستبقى في حياته تلك التناقضات والصراعات، وسيظل التنافر المحتوم يشكّل تركيبه، أما أنفاس طائري واختراعي، فقد أحدث للأسف خللاً بالتوازن الموجود في الطبيعة أصلاً.. كنت أظن بمشروعي هذا سأخلق العدل والسلام والرفاهية في الأرض، غير أني كنت واهما، فلا أمل للإنسانية في الحياة البشرية.. والآن سأسلمّ بعبثَّية مسعاي وأنتظر مركبتي التي ستعيدني إلى كوكبي .

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صدر للمؤلفة

- **انتظار السمرمر ـ محكيات** (رواية)، 2016، دار ومكتبة عدنان بغداد ـ العراق.النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net" 2025.
- **سوناتا الغراب،** (رواية)، 2022، دار لندن للطباعة والنشر ـ المملكة المتحدة.النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net" 2025.
- **ظلال لاسعة،**(مجموعة قصص)، دار لندن للطباعة والنشر ـ المملكة المتحدة. النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net" 2025.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فيحاء السامرائي

ولدت الكاتبة والأديبة العراقية **فيحاء السامرائي** في مدينة الحلة جنوب بغداد، وتخرجت في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة بغداد، ثم حصلت على ماجستير في الترجمة من جامعة ويستمنستر البريطانية، وتعيش في المملكة المتحدة.

بدأت مسيرتها الأدبية عبر نشر مقالات وقصص قصيرة في صحف عربية ومواقع إنترنت متخصصة في الإبداع الأدبي، قبل أن تنتقل إلى كتابة الرواية بأسلوبٍ يجمع بين العمق الفكري والجمالي، مع تركيز على قضايا الهوية والمنفى والهامش.

أبرز أعمالها:

• **"انتظار السمرمر: محكيات"** (2016): رواية تُسائل الهوية العراقية عبر سبع محكيات مترابطة، تعرض فيها حياة الشخصية الرئيسية "نيدابا" خلال أزمنة متعددة وجغرافية اجتماعية تمتد في بلدان متعددة.

منشورات «ألف ياء» «AliYaa

• **"سوناتا الغراب"** (2022): رواية تتناول حياة المغتربين العراقيين في لندن، باستخدام رمزية الموسيقى والأسطورة لاستكشاف صراعات الانتماء والذاكرة.

• **"ظلال لاسعة"** (2025) مجموعة قصصية.

تميز أسلوب السامرائي بالتكثيف الشعري للغة أو استخدام النص الشعري ضمن سرد الرواية، وتحويل التفاصيل اليومية إلى مفارقات فلسفية، مع الحفاظ على هوية سردية عراقية متأثرة بتكوينها الثقافي المنفتح على الثقافة العالمية.

تُجسِّد الكاتبة تجربة العراقيين بين التمزق والبحث عن معنى في ظل التحولات المعاصرة، وتُعد أعمالها إضافةً لافتة للأدب النسوي العربي الحديث، وتُواصل السامرائي تطوير مشروعها الأدبي الذي يعكس ثنائية الانتماء والاغتراب.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»